المرأة الجديدة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإهـــداء

إلى صديقى سعد زغلول

فيك وجدت قلبًا يحب ، وعقلاً يفتكر ، وإرادة تعمل .

أنت مثلت إلىّ المودة فى أكمل أشكالها ، فأدركت أن الحياة ليست كلها شقاء ، وأن فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها .

من هذا أمكننى أن أحكم أن هذه المودة تمنح ساعات أحلى إذا كانت بين رجل وزوجته .

ذلك هو سر السعادة الذى رفعت صوتى لأعلنه لأبناء وطنى رجالاً ونساء .

١٥ أغسطس سنة ١٩٠٠

قاسم أمين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

المرأة الجديدة : هى ثمرة من ثمرات التمدن الحديث ، بدأ ظهورها فى الغرب على أثر الاكتشافات العلمية التى خلصت العقل الإنسانى من سلطة الأوهام والظنون والخرافات وسلمته قيادة نفسه ، ورسمت له الطريق التى يجب أن يسلكها . ذلك حيث أخذ العلم يبحث فى كل شىء ، وينتقد كل رأى ، ولا يسلم إلا إذا قام الدليل على ما فيه من المنفعة للعامة وانتهى به السعى إلى أن أبطل سلطة رجال الكنيسة ، وألغى امتيازات الأشراف ووضع دستورًا للملوك والحكام ، وأعتق الجنس الأسود من الرق ، ثم أكمل عمله بأن نسخ معظم ما كان الرجال يرونه من مزاياهم التى يفضلون بها النساء ولا يسمحون لهن بأن يساوينهم فى كل شىء .

كان الأوروبيون يرون رأينا اليوم فى النساء ، وأن أمرهن مقصور على النقص فى الدين والعقل وانهن لسن إلا عوامل الفتنة وحبائل الشيطان ، وكانوا يقولون : ان (ذات الشعر الطويل والفكر القصير) لم تخلق إلا لخدمة الرجل ، وكان علماؤهم وفلاسفتهم وشعراؤهم وقسسهم يرون من العبث تعليمها وتربيتها ويسخرون بالمرأة التى تترك صناعة الطعام وتشتغل بمطالعة كتب العلم ويرمونها بالتطفل على ما كانوا يسمونه خصائص الرجال .

فلما انكشفت عنهم غشاوة الجهل ، ودخل حال المرأة تحت انتقاد الباحثين اكتشفوا أنهم هم أنفسهم منشأ انحطاطها وسبب فسادها ، وعرفوا أن طبيعتها العقلية والأدبية قابلة للترقى كطبيعة الرجل ، وشعروا أنها إنسان مثلهم ، لها الحق فى أن تتمتع بحريتها ، وتستخدم قواها وملكاتها ، وأن من الخطأ حرمانها من الوسائل التى تمكنها من الانتفاع منها .

ومن ذلك الحين دخلت المرأة الغربية فى طور جديد ، وأخذت فى تثقيف عقلها وتهذيب أخلاقها شيئًا فشيئًا ، ونالت حقوقها واحدا بعد الآخر ، واشتركت مع الرجال فى شئون الحياة البشرية ، وشاركتهم فى طلب العلم فى المدرسة ، وسماع الوعظ فى الكنيسة ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجالستهم فى منتديات الأدب ، وحضرت فى الجمعيات العلمية ، وساحت فى البلاد . ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى اختفت من عالم الوجود تلك ـ الأنثى ـ تلك الذات البهيمية التى كانت مغمورة بالزينة ، متسربلة بالأزياء ، منغمسة فى اللهو ، وظهر مكانها امرأة جديدة ، هى المرأة شقيقة الرجل ، وشريكة الزوج ، ومربية الأولاد ، ومهذبة النوع ! .

هذا التحويل هو كل ما نقصد .

غاية ما نسعى إليه هو أن تصل المرأة المصرية إلى هذا المقام الرفيع ، وأن تخطو هذه الخطوة على سلم الكمال اللائق بصفتها ، فتمنح نصيبها من الرقى فى العقل والأدب ، ومن سعادة الحال فى المعيشة ، وتحسن استعمال مالها من النفوذ فى البيت .

إذا تم ذلك فنحن على يقين لا يزعزعه أدنى شك من أن هذه الحركة الصغيرة تكون أكبر حادثة فى تاريخ مصر .

إذا كان هذا هو اعتقادنا فهل يصح أن يصدنا عن المثابرة فى السعى إلى تحقيق آمالنا أن الجمهور من العامة لم يلتفت إليه ، أو أن بعض الكتاب أظهروا السخط عليه ، ما بين منتقد لم يتفق رأيه مع رأينا ، وساخر يقضى عمره فى السفاسف ، ومغتر ينكر علينا حسن نيتنا ؟؟ .

نحن لا نكتب طمعا فى أن ننال تصفيق الجهال وعامة الناس الذين إذا سمعوا كلام الله وهو الفصيح لفظه الجلى معناه ، لا يفهمونه إلا إذا جاء محرفا عن وضعه منصرفا عن قصده برأى شيخ هو أجهل الناس بدينه ! ولا يحبون الوطن إلا إذا تمثل لأعينهم فى صورة قبيحة وأخلاق رثة وعادات سخيفة ! وإنما نكتب لأهل العلم ، وعلى الخصوص للناشئة الحديثة التى هى مستودع أمانينا فى المستقبل ، فهى التى بما اكتسبته من التربية العلمية الصحيحة يمكنها أن تحل مسألة المرأة المكان الذى تستحقه من العناية والبحث .

لم نر هذه الدفعة حاجة إلى التكلم على الحجاب من الجهة الدينية فإن ما أوردناه فى كتاب [تحرير المرأة] من النصوص القرآنية صريح فى إباحة كشف الوجه واليدين ، ومعاملة النساء للرجال ، وقد وافقنا على ذلك كثير من علماء المسلمين الذين نقلنا آراءهم . أما أن فريقًا آخر من الفقهاء استحسن التشديد فى الحجاب فهذا رأى لا يلزمنا الدين باتباعه .

وإذا كان فى هذه المسألة قولان فمن الصواب أن يرجح القول الموافق للحرية الإنسانية وللمصلحة العامة .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد كتب صاحب مجلة [المنار][٣٣٦] كلمة فى الحجاب نوردها هنا تأييدًا لرأينا . قال :

« وأما الأمر الثالث ، وهو حكم الشرع فى هذه المكالمة ، فالمعروف أن الشرع إنما حرم الخلوة بالمرأة الأجنبية . وأخبار الصدر الأول مستفيضة بمكالمة النساء للرجال وحديثهن معهم فى الملأ دون الخلوة ، وكفاك أن نساء النبى صلى الله عليه وسلم ـ وهن اللاتى أمرن بالمبالغة فى الحجاب ـ كن يحدثن الرجال ، حتى أن السيدة عائشة كانت قائدة عسكر ومدبرة له فى وقعة الجمل المعروفة ، وما أخال أن مكابرًا يقول إنها لم تكن تكلم أحدا منهم إلا ذا محرم » .

هذا هو رأى رجل عرف الناس جميعهم مكانه من الدين . ولو كان أهل الأزهر يشتغلون بفهم مقاصد دينهم بدلاً من اشتغالهم بالألفاظ والتراكيب النحوية واللغوية لما اختلفوا معنا فى شىء مما قلناه .

ومن العيب أن الجرائد وأصحاب الأفكار يرمون كل يوم علماء الدين الإسلامى بأنهم السبب فى انحطاط وتأخر الأمم الإسلامية عن سواها فى المدنية ، ويصفونهم بالتساهل فى فهم الدين وعدم مراعاة أحكامه ، ثم إذا تحركت غيرة لعرض رأى يظن أن فيه خيرًا للأمة تحولت أنظارهم إلى هؤلاء العلماء واستفتوهم عن رأيهم فيه ، وغاب عنهم أن الذين يحاربون الإصلاح ولا يفرضون لتعلمهم العلوم العصرية فائدة تعود عليهم فى تهذيب عقل أو استكمال أدب أو تقويم عمل ، ولم يقبلوا تدريس علم الجغرافيا والتاريخ إلا رغم أنفهم ليس لهم مقام لا من العلم ولا من الدين يسمح لهم بإبداء رأى فى شأن من شئون الأمة فضلا عن مسألة من أهم مسائل الاجتماع البشرى .

والمطلع على الشريعة الإسلامية يعلم أن تحرير المرأة هو من أنفس الأصول التى يحق لها أن تفتخر به على سواها ، لأنها منحت المرأة من اثنى عشر قرنًا مضت الحقوق التى لم تنلها المرأة الغربية إلا فى هذا القرن وبعض القرن الذى سبق ، حتى إنها لا تزال محرومة من بعض الحقوق وهى الآن مشتغلة بالمطالبة بها .

فإذا كانت شريعتنا قررت للمرأة كفاءة ذاتية فى تدبير ثروتها والتصرف فيها ، وحثت على تعليمها وتهذيبها ، ولم تحجر عليها الاحتراف بأى صنعة والاشتغال بأى عمل ، وبالغت

---

(٣٣٦) هو الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥ م) كاتب اسلامى سلفى ، جعل من مجلته وقلمه وسائط بين فكر الامام محمد عبده وبين جمهور القراء ، ولذلك كانت اهم انجازاته هى الحفاظ على آثار الاستاذ الامام وكتابة تاريخه . ولقد غير منهجه السلفى المحافظ عن منهج محمد عبده العقلانى ، خاصة بعد وفاة الاخير سنة ١٩٠٥ م .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فى المساواة بينها وبين الرجل إلى حد أن أباحت لها أن تكون وصية على الرجل وأن تتولى وظيفة الإفتاء والقضاء أى وظيفة الحكم بين الناس بالعدل ، وقد ولى عمر رضى الله عنه على أسواق المدنية نساء ، مع وجود الرجال من الصحابة وغيرهم ، مع أن القوانين الفرنساوية لم تمنح النساء حق الاحتراف بصنعة المحاماة إلا فى العام الماضى ، إذا كانت شريعتنا تحامى عن المرأة إلى هذا الحد ، وتمنحها هذه الدرجة من الحرية ، فهل يجدر بنا فى هذا العصر أن نغفل مقاصد شرعنا ونهمل الوسائل التى تؤهل المرأة إلى استعمال هذه الحقوق النفيسة ، ونضيع وقتنا فى مناقشات نظرية لا تنتج إلا تعويقنا عن التقدم فى طريق إصلاح أحوالنا ؟ .

لا أظن أن ذلك يليق بنا وأرجو أن كثيرًا من القراء يرون مثل رأينا .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المرأة فى حكم التاريخ

لا يمكن معرفة حال المرأة اليوم إلا بعد معرفة حالها فى الماضى . تلك هى قاعدة البحث فى المسائل الاجتماعية ، فإننا لا يمكننا أن نقف على حقيقة حالنا فى أى شأن من شئوننا إلا بعد استقراء الحوادث الماضية والإلمام بالأدوار التى تقلبت فيها ، وبعبارة أخرى يلزم أن نعرف من أى نقطة ابتدأنا حتى نعلم إلى أى نقطة نصل .

ذكر شيخ المؤرخين « هيرودوت »(٣٣٧) أن علاقات الرجل بالمرأة كانت متروكة إلى الصدفة ، ولا تفترق عما يشاهد بين الأنعام ، وكان الشأن إذا ولدت المرأة ولدا أن يجتمع القوم متى وصل الولد إلى سن البلوغ وينسبوه إلى أشبه الناس به . وهذه العادة كانت معروفة أيضًا عند القبائل الجرمانية وعند العرب فى الجاهلية ، وقد جاءت روايات السياح المعاصرين لنا مؤيدة لما جاء به التاريخ ، فإن جميع السياح الذين طافوا بلاد « تايتى » وجزائر « مركيز » وغيرهما من أقاليم أستراليا وزيلنده الجديدة وبعض بلاد الهند وأفريقيا ذكروا أن الزواج غير معروف فى تلك البلاد .

ولا خلاف فى أن المرأة التى هذه حالها تعيش مستقلة ، تعول نفسها بنفسها ، مساوية للرجل فى جميع الأعمال ، بل لها من المزية عليه أن نسب الأولاد يتعلق فى الغالب بها وحدها ، فالمرأة فى هذا الدور الأول هى ذات الشأن فى الهيئة الاجتماعية ، وربما كانت تشترك فى الدفاع عن قبيلتها مع الرجال ، ويدل على ذلك ذكر وقائع الفارسات فى التواريخ القديمة ووجود عادة منتشرة إلى الآن فى بعض البلاد تقضى بتجنيد النساء كما تجند الرجال ومن هذا القبيل أن ملك « سيام » له عدد من النساء عهد إليهن حراسته ، وكان لملك

---

(٣٣٧) هو الملقب بأبى التاريخ ، عاش ما بين سنتى ٤٨٤ و ٤٢٥ ق . م . وسجل تاريخ الصراع بين الفرس والاغريق . وزار عددا من البلاد ، من بينها مصر ، وكتب عن مشاهداته وما سمعه من طرائف وأساطير .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

« الداهومية بها نزن » الذى استولى الفرنساويون على بلاده من بضع سنين خمسمائة جندى من الرجال وخمسمائة من النساء .

ولما ودع الإنسان بداوته . واتخذ وطنًا قارًا ، واشتغل بالزراعة وجد نظام البيت ، ومن أهم ما ساعد على تشكيل العائلة أنه كان لكل عائلة معبود خاص بها تختاره من بين أسلافها كما كان جاريًا عند اليونان والرومان والهنود والجرمانيين ، وكما هو جار إلى الآن عند الأمم المتوحشة ، وله بقية فى بلاد الصين ، وكانت العائلة تقدم القربان إلى آلهتها ، فكان هذا باعثًا للرجل على استبقاء ذرية تقوم بتأدية الخدمات الدينية .

وترتب على دخول المرأة فى العائلة حرمانها من استقلالها . لذلك نرى رئيس العائلة عند اليونان والرومان والجرمانيين والهنود والصينيين والعرب مالكًا لزوجته ، وكان يملكها كما يملك الرقيق بطريق الشراء ، بمعنى أن عقد الزواج كان يحصل على صورة بيع وشراء ، وهذا أمر يعلمه كل مطلع على القانون الرومانى ، وذكره المؤرخون ورواه السياح المعاصرون لنا . يشترى الرجل زوجته من أبيها فتنتقل إليه جميع حقوق الأب عليها . ويجوز له أن يتصرف فيها بالبيع لشخص آخر ، فإذا مات انتقلت مع تركته إلى ورثته من أولادها الذكور أو غيرهم .

ومما يتبع هذه الحال أن المرأة لا تملك شيئا لنفسها ولا ترث ، وان يتزوج الرجل بعدة نساء لأن الوحدة فى الزواج تفرض المساواة بين الزوجين فى الحقوق والواجبات .

ثم خفت صولة الرجل على المرأة نوعًا بتأثير الحكومة ، فردت إليها حق الملك كله أو بعضه ، وحق الإرث تامًا أو ناقصًا ، على حسب الشرائع ، ولكن حماية الحكومة للمرأة لم تبلغ فى أى بلد من البلاد إلى حد أنها سوت بين الرجل والمرأة فى الحقوق ، فالمرأة فى الهند كانت مجردة عن شخصيتها الشرعية ، وعند اليونان كانت النساء مكلفات بأن يعشن فى الحجاب التام ، ولا يخرجن من بيوتهن إلا عند الضرورة ، وعند الرومان كانت المرأة فى حكم القاصر ، وفى مبدأ تاريخ أوروبا عندما كانت خاضعة إلى سلطة الكنيسة والقانون الرومانى ، كانت فى أسوأ حال ، حتى أن بعض رجال الدين أنكروا أن لها روحًا خالدة وعرضت هذه المسألة على المجمع الذى انعقد فى ماون فى سنة ٥٨٦ فقرر بعد بحث طويل ومناقشة حادة أن المرأة إنسان ولكنها خلقت لخدمة الرجل ، وكان من الضرورى أن تعيش تحت قوامة رجل وهو أبوها قبل زوجها ، ثم زوجها بعد الزواج ، وأحد أبنائها إذا مات الزوج ، أو احد أقاربها من الذكور أو أقارب زوجها إن لم يكن لها أولاد ، ولا يجوز لها فى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أى حال أن تتصرف بنفسها ، وكانت غير أهل للشهادة فى العقود ولا للوصاية على أولادها القصر ولا لأن تكون حكمًا أو أهل خبرة ، وشوهد فى بعض ولايات سويسرة أن شهادة امرأتين تساوى شهادة رجل واحد ، ولا تزال آثار هذه الأحكام باقية إلى الآن فى كثير من ممالك أوروبا . ذلك لأن مبدأ تشكيل الحكومة كان على صورة العائلة ، والحكومة التى تؤسس على السلطة الاستبدادية لا ينتظر منها أن تعمل على اكتساب المرأة حقوقها وحريتها .

هذا الضرب من الحكومة الاستبدادية هو أول حكومة سياسية ظهرت فى العالم ، وقد اضمحل ثم زال بعد أن أقام أجيالا فى البلاد الغربية ، وحل محله النظام الدستورى المؤسس على أن الحاكم ليس له حق على الأشخاص ولا على الأموال إلا ما تفرضه القوانين .

ولكنه لا يزال سائدًا فى الشرق بعامة حيث نرى سكان الصين والهند وبلاد العرب والترك والعجم خاضعين إلى سلطة حكومة لم تتغير عما كانت عليه من آلاف من السنين .

وليس هنا محل البحث عن الأسباب التى وقفت بهذه الجمعيات الشرقية عند حد العجز عن التخلص من الاستبداد المزمن الذى حرمها الترقى فى المدنية وحصر حركاتها فى مدار واحد بدون أن تنتقل من مكانها ، وإنما يهمنا هنا أن نثبت أمرا يتعلق بموضوعنا وهو **وجود التلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية فى كل بلد ، ففى كل مكان حط الرجل من منزلة المرأة وعاملها معاملة الرقيق حط نفسه وأفقدها وجدان الحرية ، وبالعكس فى البلاد التى تتمتع فيها النساء بحريتهن الشخصية يتمتع الرجال بحريتهم السياسية فالحالتان مرتبطتان ارتباط كليا .**

وإن لسائل أن يسأل : أى الحالتين أثرت فى الأخرى ؟ نقول : إنهما متفاعلتان ، وأن لكل منهما تأثيرًا فى مقابلتها ، وبعبارة أخرى : إن شكل الحكومة يؤثر فى الآداب المنزلية والآداب المنزلية تؤثر فى الهيئة الاجتماعية .

انظر إلى البلاد الشرقية ، تجد أن المرأة فى رق الرجل ، والرجل فى رق الحاكم ، فهو ظالم فى بيته مظلوم إذا خرج منه . ثم انظر إلى البلاد الأوروباوية تجد ان حكوماتها مؤسسة على الحرية واحترام الحقوق الشخصية فارتفع شأن النساء فيها إلى درجة عالية من الاعتبار وحرية الفكر والعمل ، وان كن لم يصلن إلى الآن إلى مستوى ما أعدلهن ، ثم انتقل إلى بلاد أمريكا تجد الرجال مستقلين فى معيشتهم الخاصة استقلالا تاما وان سلطة الحكومة وتداخلها فى شئون الأفراد يكادان أن يكونا معدومين . ولهذا زادت حرية النساء فيها عما هى فى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أوروبا بكثير . حيث تساوى المرأة والرجل من البلاد الأميركية فى جميع الحقوق الشخصية . وفى بعض تلك الولايات تمت المساواة بينهما أيضا فى الحقوق السياسية .

فى ولاية « بومنج » نالت النساء حق الانتخابات السياسية من سنة ١٨٦٩ .. وإنى أنقل هنا رأى رئيس حكومتها « المسيو شامبل » ، الذى جاهر به فى خطبة ألقاها بعد سنتين من العمل بهذا القانون قال :

« مضت سنتان والنساء بحكم القانون يستعملن حقوقهن السياسية ، فينتخبن نواب الأمة وينبن بأنفسهن عنها ، ويجلسن فى مراكز القضاء ، ويؤدين ما دون ذلك من الوظائف العمومية ، ومن العدل أن النساء قد قمن بهذه الواجبات الجديدة على وجه من الرزانة وحصافة الرأى وسلامة الذوق لا ينقص عما يقوم به الرجال . وهذه التجربة بالنسبة لقصر مدتها لا تصلح أن تكون دليلاً مقنعا لإثبات استعداد المرأة فى القيام بمهام الحكومة لكنها تحمل على حسن الظن بفطرة المرأة . ومادام الحال على هذا المنوال فلهن الحق فى الاستمرار » .

وبعد تجربة أخرى مدة أربع سنين قال الرئيس المذكور :

« مضى اليوم ست سنين ونحن نجرب النساء فى استعمال حقوقهن السياسية ، وقد أعلنت رأيى فى جلسة سابقة ، وصرحت بالفوائد التى أظهرتها التجربة ، والآن أقول : إن ما شاهدته فى مدة هذه الست سنين أقنعنى اقناعا تاما بأننا أصبنا فى تخويل النساء حق الانتخاب ، وأن مساواة المرأة للرجل فى الحقوق السياسية قد نجحت بالتجربة نجاحا لا يمارى فيه أحد » .

وبعد ذلك بسنتين تعين رئيس آخر للحكومة وهو الجنرال « طاير » ، وقد انتخب من بين أعضاء مجلس شيوخ الولايات المتحدة ، فخطب قائلا :

« لقد مضى ثمانى سنين والنساء يتمتعن فى أرضنا بالحقوق السياسية ، وكل يوم يمر يزيد الأهالى ثقة بالنساء ، وفى رأيى ان هذه نتيجة حسنة لأنها موافقة لمصالح أمتنا » .

ثم بعد ذلك بخمس سنين فى ١٢ يناير سنة ٨٢ خطب رئيس آخر يدعى جون هويت بما هوآت :

إن ولاية « بومنج » هى المكان الوحيد الذى تتمتع فيه النساء بجميع الحقوق السياسية الممنوحة للرجال بلا فرق بين الصنفين ، وهذا الاقدام من أمتنا ، التى أرشدها حب الحق والعدل إلى اصلاح خطأ طال عليه الزمن ، قد وجه أنظار العالم إلينا . ولئن زعم اخصامنا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أننا لا نزال فى دور التجربة فكلنا نعلم أن هذا الدور قد انقضى بالنسبة إلينا . وإنى أصرح هنا بأن اشتراك النساء فى أعمال الحكومة مع الرجال ترتب عليه ان القوانين عندنا أصبحت أحسن مما كانت عليه ، وان عدد الموظفين الأكفاء وصل إلى درجة لم نعهدها من قبل وأن حالتنا الاجتماعية ارتقت كثيرًا ، وهى الآن تفوق ما عليه سائر البلاد الأخرى ، وان جميع المصائب التى كنا نهدد بحلولها ، مثل فقد النساء رقة الطبع ، واضطراب النظام فى معيشتنا المنزلية ، لم نر لها أثرا إلا فى مخيلات خصومنا .

إن السواد الأعظم من نسائنا قدرن حقوقهن الجديدة حق قدرها ، واعتبرن القيام بها واجبًا وطنيًا ، وبالجملة فإنى أقول : ان تجربة اثنتى عشرة سنة مع النجاح الباهر قد مكنت فى عقولنا ونفوسنا ان مساواة المرأة للرجل مما لا يرتاب فيه .

وكل هذه المقدمات تنساق بنا إلى طلب الكمال فى حالتنا الاجتماعية حتى نجعل ولاية « بومنج » نجما يهتدى به العالم فى الحركة العظيمة التى تصعد بالإنسان ذروة الحرية » .

وليس على أن أضيف على آراء هؤلاء الرجال العظام إلا أن قانون سنة ٦٩ لا يزال معمولاً به إلى الآن فى « بومنج » ، وأن ثلاث ولايات أميركانية قد حذت حذو تلك الولاية وخولت النساء الحقوق السياسية ، وهى ولاية « آوته » و « كولورادو » و « ايداهو » .

أما فى باقى ولايات أمريكا فالمرأة لم تنل إلى الآن حقوقها السياسية ، ولكن كل مطلع على حركة الرأى العام فيها لا يشك أنها ستنال هذه الحقوق فى زمن قريب جدًا ، وإليك رأى رجلين من أكبر رجالها السياسيين .

قال « سميلون » العضو فى مجلس شيوخ الولايات المتحدة : « انى أعتقد أن انتشار الفسق فى مدننا الكبيرة لا يمكن أن يضيق نطاقه إلا إذا منحت النساء حق الانتخاب » .

ومن رأى « جيلبير هافيه » ، وهو أيضًا من أعضاء مجلس الشيوخ : « ان فساد الأخلاق السياسية لا يصلحه إلا اشتراك النساء فى الانتخابات ، لأننا نعلم أن الحارة هى مجلس البلدية ومركز الانتخابات وما ذلك إلا لأن الحارة هى المحل الوحيد الذى لا تدخل فيه المرأة » .

لعل القارئ يستغرب كيف أن الرجال فى أمريكا يرون أن لا سبيل إلى محاربة الفسق وفساد الأخلاق إلا بمعونة النساء ، هذا أمر يحتاج إلى البيان ، ولذلك أنقل هنا رأى القاضى الأمريكانى « جون لينجان » ، وقد نشر فى سنة ١٨٨٢ فى أهم جرائد أوروبا قال :

« كان الرجال قبل اشتراك النساء فى الوظائف العمومية إذا اجتمعوا فى مكان واحد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا يخلو جيب واحد منهم من مسدس ، فإذا قام نزاع خفيف بين بعض الحاضرين لم يكن ينتهى عادة إلا بقتل أو جرح ، وكان المحلفون يحكمون فى الغالب ببراءة الجانين ، فلما اشتركت النساء فى الوظائف القضائية مع الرجال نتج عن ذلك معاقبة المذنبين ، وكذلك كان المحلفون لا يهتمون بالعقوبة على السكر والقمار والفجور فتغير الحال الآن ـ وقد ترتب على حضور النساء فى الجلسات اننا نرى الآن قاعاتها متحلية من النظام والأدب والوقار بأكثر مما كان يعرف فيها من قبل .

ولم يترتب على اشتغال النساء بالوظائف العمومية انهن اهملن ما يجب عليهن فى منازلهن ولم يصل إلى علمى أن زوجًا اشتكى زوجته بسبب اشتغالها عن مصالح منزلها بالمصالح العامة ولم أر شقاقًا بين زوجين بسبب اختلاف آرائهما السياسية ، ولم أسمع به ، على أنى أعرف عدة عائلات ينتمى فيها الزوج إلى حزب والزوجة إلى حزب آخر » .

على ان المرأة الأمريكانية منحت فى جميع الولايات المتحدة حظًا عظيمًا من الحقوق العمومية ، فلها ان تحترف حرفة المحاماة وتترافع أمام جميع المحاكم ، يوجد قضاة من النساء فى ولايات « كانساس » و « بومنج » و « كولومبيه » و « شيلى » و « زيلندة » وغيرها ، وعين بعض أفرادهن فى وظيفة نائب عمومى ، ويوجد عدد عظيم منهن فى نظارات الخارجية والداخلية والحربية .

أما عدد النساء المشتغلات بتحرير العقود الرسمية ، والنساء القسيسات ، والمهندسات ومديرات الجرائد ، والمستخدمات فى الرصد خانات والبوستة والتلغرافات فلا يكاد يحصى .

وتشغل النساء أغلب الوظائف فى إدارة المعارف ، فقد بلغ عددهن خمسا وتسعين فى المائة فى المدارس الابتدائية . قال « بول بورجيه »[٣٣٨] الكاتب الفرنساوى الشهير فى كتاب حديث ألف عقب زيارته أمريكا فى وصف حال نسائها ما يأتى :

« إذا زرت مدرسة عمومية وجدت البنات يدرسن مع الصبيان فى مكان واحد ، والأستاذ الذى يلقى الدرس رجلاً أو امرأة بلا فرق ، وإذا دخلت فى معمل علمى وجدت بنات محنيات الرءوس على آلة الميكروسكوب وبجانبهن شبان من طلبة العلم ، الكل مشتغل بفحص مسألة من علم التشريح ، ويزورك أحد مكاتبى الجرائد من غير أن يسمى نفسه فتجد إنه امرأة ، وتروم استدعاء أحد الأطباء المشهورين فتجد عدد الأطباء من النساء

---

(٣٣٨) روائى فرنسى (١٨٥٢ ـ ١٩٣٥ م) كان من اتباع المدرسة الطبيعية فى الادب ، ثم خرج عليها واعتنق المذهب الكاثوليكى ، فغلبت الروح الدينية على رواياته .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مساويا لعدد الأطباء من الرجال ، وإن لم يكن مساويا فى بعض الجهات فهو من الكثرة بحيث لا يعد التطبيب منهن من قبيل النادر » .

ويكفى لبيان ارتقاء شأن المرأة الأمريكانية أن نقول : إنه تبين من الاحصائية التى عملت فى سنة ١٨٨٠ أن النساء المحترفات بالعلوم والأدبيات فقط بلغ عددهن خمسا وسبعين فى المائة و٦٣ فى المائة فى التجارة و٦٢ فى المائة فى الصناعة .

فإذا انتقلنا من أميركا إلى انكلترا ، وهى أقرب الأمم إليها ، وجدنا أن اشتغال النساء بالعلوم والصنائع لا يقل تقريبًا عما يشاهد فى أميركا ، فقد نتج من احصائيتها الأخيرة أن مليونًا منهن يشتغلن بالعلوم والأدبيات وثلاثة ملايين بالتجارة والصناعة .

وللنساء الانكليزيات حق الانتخاب فى المجالس البلدية وفى مجتمعات المعارف والجمعيات الخيرية ، ولم يفت النساء التمتع بهذه المزايا حتى فى المستعمرات الانكليزية « كالكاب » و « كندا » و « استراليا » .

أما مسألة منحهن الحقوق السياسية فهى لا تزال فى دور التحضير ، وأول طلب تقدم من النساء الانكليزيات إلى مجلس النواب كان فى سنة ١٧٦٦ ، وأمضى عليه ستمائة ألف امرأة وأول مشروع تقدم إلى مجلس النواب لتخويلهن الحقوق السياسية كان فى سنة ٦٧ [٣٣٩] وكان من حسن حظه أن العلامة « استوارت ميل » [٣٤٠] هو الذى أخذ على نفسه المدافعة عنه أمام المجلس ، فاكتسب فى الحال ثمانين صوتًا من النواب ، كما أذكر من بينهم « ديزرائيلى » [٣٤١] و « غلادستون » [٣٤٢] ، وفى سنة ٧٢ تقدم المشروع ثانيًا ونال ١٥٩ صوتًا وفى سنة ٧٣ نال ١٧٢ صوتًا ومازال يتقدم من حين إلى حين ويكسب أصواتًا جديدة حتى توفرت له الأغلبية فى سنة ٩٧ فأقر عليه مجلس النواب ولم يبق لنفاذه إلا تصديق مجلس الأعيان .

---

(٣٣٩) أى سنة ١٨٦٧ م .

(٣٤٠) هو الفيلسوف الانجليزى جون ستيوارت مل (١٨٠٦ ـ ١٨٧٣ م) صاحب الفلسفة التجريبية والمنطق الاستقرائى . أصدر فى سنة ١٨٤٨ م كتابه [مبادئ الاقتصاد السياسى] كما اشتهر بأفكاره عن حرية المرأة ومذاهب المنفعة ، والحرية ...

(٣٤١) بنيامين ايرل بيكنسفيلد (١٨٠٤ ـ ١٨٨١ م) سياسى انجليزى ، من اصل يهودى ، تزعم حزب المحافظين وتولى رئاسة الحكومة ، ولعب دورا هاما فى سياسة بريطانيا الاستعمارية ، كما كان مؤلفا كذلك .

(٣٤٢) وليم ايوارت (١٨٠٩ ـ ١٨٩٨ م) من الساسة الانجليز فى القرن الماضى ، تزعم حزب الاحرار ، ووصل الى رئاسة الوزارة .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفى فرنسا لم تصل حركة الأفكار فى شأن النساء إلى هذا الحد ، فعدد المشتغلات من النساء بممارسة العلوم قليل ، وعدد الموظفات فى المصالح الأميرية يكاد يكون محصورًا فى مصلحة البوستة والتلغراف والتليفون ، والحرفة التى اتجهت إليها على الخصوص نساء فرنسا هى التجارة ، وقد خاب ظن « فيكتور هيجو »[٣٤٣] أكبر شعراء العصر فى فرنسا الذى قال : (إن القرن الثامن عشر قرر حقوق الرجال ، وسيقرر القرن التاسع عشر حقوق النساء) حيث قد انتهى القرن التاسع عشر ولم يتم شىء كبير من الاصلاحات التى يطالب بها كثير من رجال فرنسا ، غير أنه فى هذه السنين العشر الأخيرة حصل تقدم محسوس فى حركة الأفكار الفرنساوية انتهى بنيل النساء حق الانتخاب فى المجالس التجارية ، وفى العام الماضى صدر القانون الذى يخول النساء الاحتراف بصنعة المحاماة .

وحال النساء فى الممالك الأوروباوية الأخرى لا يختلف إلا قليلاً عن حال النساء فى فرنسا .

أما مملكة روسيا فمركزها الجغرافى قضى بأن تتأثر بالعادات الشرقية ، ولهذا فقد عاش نساؤها من أهل الطبقة العالية والطبقة الوسطى محجوبات ، كنساء الشرق ، مسجونات فى البيوت ، محرومات من التربية والتعليم . وليس لهن من الحقوق إلا ما تسمح به رحمة أزواجهن وأوليائهن ، ولم تبطل هذه العادة من البلاد الروسية إلا فى سنة ١٧٢٦ حيث صدر أمر عال من « بطرس الأكبر »[٣٤٤] بإلغاء الحجاب مرة واحدة ، ثم تولت بعده الامبراطورة « كاترين »[٣٤٥] فتممت عمله واشتغلت من سنة ١٧٦٢ إلى ١٧٩٧ بتأسيس المدارس للبنات ، ونشرت بينهن التربية العقلية والأدبية .

ولكن لما تولى الملك الكسندر الأول[٣٤٦] ، وكان يبغض الحرية ، وقفت هذه الحركة حتى تولى الملك الكسندر الثانى[٣٤٧] وكان ميالا إلى ترقية بلاده محبا لتقدمها فأبطل استعباد

---

(٣٤٣) فيكتورهوجو (١٨٠٢ ـ ١٨٨٥ م) أشهر أدباء فرنسا فى عصره ، وهو شاعر وروائى وكاتب مسرحى . وأعظم رواياته رواية البؤساء .

(٣٤٤) بطرس الاكبر (١٦٧٢ ـ ١٧٢٥ م) هو بطرس الاول قيصر روسيا ومؤسس دولتها الحديثة الذى ادخل فيها نمط التمدن الغربى ، وبدأ فيها عصر الصناعة .

(٣٤٥) كاترين الثانية ، أوكاترين العظمى (١٧٢٩ ـ ١٧٩٦ م) امبراطورة روسيا وقيصرتها . لعبت دورا بارزا فى سياسة روسيا التوسعية والاستعمارية فى القرن الثامن عشر .

(٣٤٦) الكسندر الاول (١٧٧٧ ـ ١٨٢٥ م) حكم القيصرية الروسية من سنة ١٨٠١ حتى سنة ١٨٢٥ م .

(٣٤٧) الكسندر الثانى (١٨١٨ ـ ١٨٨١ م) حكم روسيا من سنة ١٨٥٥ حتى سنة ١٨٨١ م .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرجال (السرفاج) وأنشأ مدارس كثيرة للبنات للتعليمين الابتدائى والثانوى كن يتعلمن فيها العلوم التى يتعلمها الذكور ، وأول مدرسة أنشئت على هذا النمط كانت فى سنة ١٨٥٧ ، ولكن لم يمض على هذه النهضة العظيمة زمن كبير حتى رأت الحكومة الروسية أن تقدم النساء فى المعارف له أثر كبير فى حالة الأمة السياسية ، وأن حزب المعارضين للحكومة أخذ ينمو فأقفلت فى سنة ١٨٦٢ أبواب المدارس العالية فى وجوه الرجال والنساء ، ولكن النساء لم يقبلن أن ينتكسن فى الجهل بعد أن ذقن طعم الحرية والعلم ، فرحل الكثير منهن عن وطنه طلبًا للمعارف ، وأخذن يهاجرن إلى فرنسا وسويسرا وألمانيا لتحصيلها وطفقن فى مهاجرهن يطعن فى الحكومة وينشرن أفكارهن فى الكتب والجرائد ويشتركن فى المؤتمرات مع الرجال فكانت عاقبة إقفال المدارس اشتداد ثورة الأفكار عما كانت عليه من قبل. فطنت الحكومة إلى هذا الأمر وعرفت أنها أخطأت ، فقررت فى ١٨٨٩ اعادة تلك المدارس ، وقد زاد عددها من ذلك العهد إلى الآن زيادة ظاهرة .

هذا هو مجمل تاريخ حياة المرأة فى العالم ، نلخصة فى كلمتين :

عاشت المرأة حرة فى العصور الأولى حيث كانت الإنسانية لم تزل فى مهدها .

ثم بعد تشكيل العائلة وقعت فى الاستعباد الحقيق .

ثم لما قامت الإنسانية على طريق المدنية تغيرت صورة هذا الرق. واعترف للمرأة بشىء من الحق ، ولكن خضعت لاستبداد الرجل الذى قضى عليها بألا تتمتع بالحقوق التى اعترف لها بها .

ثم لما بلغت الإنسانية مبلغها من المدنية نالت المرأة حريتها التامة وتساوت المرأة والرجل فى جميع الحقوق ، أو على الأقل فى معظمها .

أربعة أحوال يقابلها أربعة أدوار من تاريخ التمدن فى العالم .

فالمرأة المصرية هى اليوم فى الدور الثالث من حياتها التاريخية ، بمعنى أنها فى نظر الشرع إنسان حر له حقوق وعليه واجبات ، ولكنها فى نظر رئيس العائلة وفى معاملته لها ليست بحرة بل محرومة من التمتع بحقوقها الشرعية ، وهذه الحال التى عليها المرأة اليوم هى من توابع الاستبداد السياسى الذى يخضعنا ونخضع له .

ومع أن الاستبداد السياسى أصبح فى حالة النزع ، وأشرف على الفوات ، بحيث لا ترجى له عودة ، لا يزال الرجال عندنا يستبدون على نسائهم .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وما سبب ذلك إلا أن قوانيننا السياسية قد ارتقت قبل أن نرتقى ، وسبقتنا إلى ما لم نصل إليه بعد ، فهى تقرر أن كل فرد منا له أن يتمتع بحريته وحقوقه الشرعية ، لا فرق فى ذلك بين الذكر والأنثى ، ونحن معاشر الرجال لم يزال راسخًا فى طبعنا حب الاستئثار بمزايا الحرية وعدم احترام حقوق النساء .

وهذا يدل على أن سلطان الأخلاق القديمة لا يزال نافذًا فى نفوسنا ، وله أثر ظاهر فى أعمالنا ، فقوانيننا وضعت لأمة حرة ، وأخلاقنا لا تزال اخلاق أمة مسترقة ! لهذا نرى رجالا وردوا موارد العلم ، وتنقلوا من مدرسة إلى مدرسة ، ومن درجة إلى درجة ، حتى حازوا على لقب علمى ، وفقهاء يعلمون الحقوق ، وشعراء من نوابغ العصر ، على ما يقول العارفون بفنهم وكتابًا نصبوا أنفسهم لإفادة الناس بجرائد تلقب بالعلمية أو الأدبية أو الفنية أو ما شئت من هذه الألقاب ، وخطباء مشهورين بحب الحرية والاستقلال ، رأينا جميع من ذكرنا وعندما سمعوا القول بأن للمرأة حقا مهضوما ، وأنها إنسان محروم ، أخذوا يتساءلون : هل يسوغ لها أن تخرج من سجنها ؟ أو يرفع عنها غطاء من جهلها ؟ وبعد طول التساؤل رجعوا إلى ما هو مركوز فى طباعهم فأنكروا عليها هذا الحق ، وحكموا عليها بأن تبقى فى ظلمات الجهل وفى السجن المؤبد ؟ .

فهل كان ذلك لأن المسألة عويصة تحتاج إلى العناء فى حلها وتقبل اختلاف الآراء فيها ؟ كلا ، وإنما نحن نتصور الحرية ، ولا نشعر فى الحقيقة بحبها ، ونعرف حق الغير ولا نجد من أنفسنا احتراما له . نحن فى دور التمرين على العمل بالأخلاق الحرة ، ونحتاج إلى زمن لترسخ فى نفوسنا ، أما الأوروباويون فإنهم يقدرون الحرية حق قدرها ، ويحبونها ويحترمونها فى غيرهم كما يقدرونها ويحبونها ويحترمونها فى أنفسهم .

وهذا شأن من له احساس حقيقى بمزية فضيلة من الفضائل . فإنما الفاضل من يجل الفضيلة اينما كان مظهرها ، قال «كوندوروسية »[٣٤٨] ، الأصولى الشهير فى هذا المعنى : اما أن لا يكون حق حقيقى لأحد من الناس واما أن يكون لكل فرد حق مساو لحق الآخر ، ومن جرد غيره من حقه مهما كان دينه أو لونه أو صنفه فقد داس بقدميه حق نفسه .

لهذا يشتغل محبو الترقى فى أوروبا وأمريكا لتحسين حال المرأة وايصالها من الكمال فوق

---

(٣٤٨) مارى جان انطوان كوندورسيه (١٧٤٣ ـ ١٧٩٤ م) فيلسوف ورياضى فرنسى ، اشترك فى الثورة الفرنسية ، ثم اختلف مع بعض قادتها ، وألف كتابا هاما عن التقدم الإنسانى ، تاريخيا ، حتى الثورة الفرنسية .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ماوصلت إليه الآن . وآلوا على أنفسهم أن يجاهدوا فى هذا السبيل حتى يبلغ النساء مرتبة الرجال فيساوينهم فى جميع الحقوق الإنسانية .

ولا أنكر أن عددا غير قليل من الغربيين لم يزل يجادل فى صحة أصل المساواة التامة بين الصنفين .

فهناك مذهبان يتزاحمان :

احدهما : يكتفى بما وصلت اليه المرأة الغربية من الحرية والحقوق .

والثانى : يطلب الازدياد فيها حتى لا يبقى فرق بين الصنفين .

هكذا انقسم العالم الإنسانى فى كل أمر إلى فريقين ، فريق المحافظين ، وفريق المصلحين كلاهما يريد الخير ويطلب السعادة للنوع ولكنهما يختلفان فى طريق الخير وسبل السعادة .

ومن تتبع سلسلة التاريخ فى جميع الازمان يعلم علم اليقين ان المرأة فى كل زمان وفى كل مكان قائمة بوظيفتها الطبيعية ، ولكنها مستعدة بضروب من الاستعداد الى ضروب من الكمال وانها سارت وتسير فى طريق الكمال التدريجى متنقلة من منزلة الى أرقى منها ومن مرتبة الى أرفع منها .

فالقول بلزوم بقائها على حال واحدة لا تتغير ولا تتبدل هو خروج بها عن القوانين الطبيعية التى قضت بتغير حالها فى الماضى وتهيئتها الآن للانتقال من طورها الحالى إلى طور آخر . وبالجملة ، فالاختلاف بيننا وبين الغربيين منشؤه أن الغربيين فهموا طبيعة الإنسان واحترموا شخصيته فمنحوا المرأة ما منحوا أنفسهم من الحقوق فى جميع ما يتعلق بالحياة الخاصة ولم ينازعها أحد منهم فى حق التمتع بحريتها فى الأعمال البدنية والعقلية ، إلا ما حرمته الآداب وسووا بينها وبين الرجل فى كل ذلك ، وإنما اختلفوا فى مسألة مساواتها بالرجل فى الحياة العامة فيرى بعضهم أن اشتغالها بالأعمال يخرجها عن دائرة وظيفتها الطبيعية ويرى البعض الآخر ان هذه الوظيفة الطبيعية لا تشغل حياة المرأة كلها ولا تشغل كل امرأة فقرروا المساواة بينها وبين الرجل أيضا فيما يتعلق بالحياة العامة .

أما نحن فإننا لا ننظر إلى المرأة نظرنا إلى الرجل ، ولم تستعد عقولنا إلى إدراك هذه الحقيقة الظاهرة وهى أن المرأة إنسان مثل الرجل ، فجردناها عن استعمال جميع حقوق الإنسان وحرمناها من جميع مزايا الحياة الخاصة والعامة ، أما اشتغال المرأة بالأعمال العامة فهو مما لا يدخل تحت مطالبنا فى هذا الكتاب ، ولهذا لا نرى فائدة فى الكلام فيه ، وأما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ما يتعلق بالحياة الخاصة للمرأة فهو الذى نقصد البحث فيه ، وهذا البحث يتناول ثلاث مسائل :

الاولى حرية المرأة ـ **الثانية** الواجب على المرأة لنفسها **الثالثة** الواجب على المرأة لعائلتها . وسنتكلم عليها على هذا الترتيب ويلى ذلك مبحث فى التربية والحجاب ثم خاتمة تحتوى على حالة الافكار الآن فى مصر بالنسبة للنساء .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حرية المرأة

لم يخطئ قدماء الفلاسفة[٣٤٩] فى مسألة خطئهم فى معنى الحرية الإنسانية ، وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن الله خلق الناس على قسمين : قسم : ميزه بالحرية ، والقسم الآخر : قضى عليه بالرق .

وكانت معيشة الاحرار بعيدة عن الاستقلال الذاتى ومتأثرة بسلطة رؤساء العائلات ورؤساء الحكومة .

والتاريخ يحدثنا بأن الحكومة فى تلك الأعصر الخالية كانت تتداخل فى كل ما يتعلق بالحياة الخاصة ، وكان لها الشأن الأول فى نظام العائلة والتربية والديانة والأخلاق والعواطف ، حتى إنها كانت تحدد فى المعاملات التجارية أثمان البضائع . وقد وصلت بها الأثرة بالتداخل فى شئون الحياة الخاصة إلى حد أن قوانين اليونان القديمة كانت تحجر على النساء الخروج من منازلهن إلا فى أحوال مبينة ، فكانت المعيشة الاجتماعية هى أشبه شىء بالعيشة العسكرية ، يأمر الحاكم حينما يريد بما يريد وما على المحكومين إلا أن يطيعوا أوامره .

ولما تقدم العالم فى المدنية تخلص الفرد شيئا فشيئا من سلطة الهيئة الاجتماعية ، ووسع فى دائرة حريته ، وانعكس الامر ، فما كان فى السابق اصلا عاما أصبح الآن من المستثنيات ، ومن ثم صارت غاية التمدن أن ينال الفرد أقصى ما يمكن من الاستقلال والحرية .

ذلك لأن الانسان ترقى فى فكره ، فهو يرى ان تسليم نفسه الى تصرف الحاكم أمر لا تسلم به منزلته من الانسانية ، ولا يتفق مع راحته وسعادته ، ولهذا فهو لا يقبل ان يتنازل لأحد عن

---

(٣٤٩) المراد هنا فلاسفة اليونان ، ولقد جاء فكرهم عن الحرية على هذا النحو لأن الرق كان ركنا من اركان المجتمع الذى عاشوا فيه ، ومن هنا ، كذلك ، كان تمييزهم ، الذى أبرزوه ، بين العمل الذهنى والعمل اليدوى .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حريته ، ولا أن يأتمن احدا عليها ولو كان أقرب الناس اليه ، ولا يسمح بأن يترك منها الى الحكومة إلا بقدر ما يلزم تركه لتتمكن من تأديه وظيفتها وهى المحافظة على الامن العام فى الداخل والمدافعة عن سياج الأمة فى الخارج ، وأيضا القيام بالأعمال التى تعود منفعتها على الجميع .

بحسب هذا الشرط يخضع الفرد إلى ما تقرره عليه من الأعمال والأموال ، اما إذا أرادت الحكومة أو أى فرد من الناس أن يدخل فى عمل من أعماله أو شأن من شئونه الخاصة فإنه يشعر بثقل الضغط عليه ويجد فى نفسه ألم الظلم .

ولذلك سببان :

الأول : ان رأى الحاكم ان طابق هوى شخص فقد يخالف أهواء الأغلب ، لأن الأمزجة مختلفة والغرائز متباينة والاذواق متفاوتة على حسب الاشخاص والاعمار والازمان والامكنة ، فوضع قاعدة واحدة لجميع الاعمال الخاصة بكل فرد لا يسهل على الطبائع البشرية قبوله .

والثانى : ما دلت عليه التجارب من أن تداخل الحاكم فى الشئون الخاصة للافراد يضعف من قواهم ، ويحرمها القدرة على تأدية وظائفها ، ويورث النفوس الخمود والعجز عن العمل ، والاتكال على الغير ، وهو وان أشعر بعض النفوس لذة الكسل والخلود الى الراحة لكنه يعود عليها بالخسة وشقاء المعيشة .

فالحرية هى قاعدة ترقى النوع الانسانى ومعراجه الى السعادة ، ولذلك عدتها الامم التى أدركت سر النجاح من أنفس حقوق الانسان .

ومن المعلوم أن المقصود من الحرية هنا هو استقلال الإنسان فى فكره وإرادته وعمله متى كان واقفًا عند حدود الشرائع محافظًا على الآداب ، وعدم خضوعه بعد ذلك فى شىء لإرادة غيره ، اللهم إلا فى أحوال مستثناة كالجنون والطفولية ، حتى بالنسبة للأطفال رأى علماء التربية الصحية ان الضغط على الأطفال مميت لعزيمتهم ، ورجحوا أن يترك الطفل يتصرف فى نفسه بحريته ، وإنما على والديه إرشاده ونصحه .

فهذه الحرية على ما بها من سعة هى التى يجب ان تكون اساسا لتربية نسائنا .

يتعجب بعض الناس من طلبى تخويل الحرية للنساء ، ويتساءلون : هل هن فى قيد الرق ؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولو فهموا معنى الحرية لما اختلفوا معنا فى الرأى .

ليس مرادنا أن نقول ان المرأة اليوم تباع وتشترى فى الاسواق . ولكن ليس الرقيق هو الانسان الذى يباح الاتجار به فقط ، بل الوجدان السليم يقضى بأن كل من لم يملك قياد فكره وارادته وعمله ملكا تاما فهو رقيق ! .

لا أظن ان القارئ يختلف معى فى الرأى ان قلت : ان المرأة فى نظر المسلمين ، على الجملة ، ليست انسانا تاما ، وان الرجل منهم يعتبر ان له حق السيادة عليها ، ويجرى فى معاملته معها على هذا الاعتقاد ، والشواهد على ذلك كثيرة .

فليس من الأدب فى كثير من العائلات ألا تقبل المرأة يد الرجل عند السلام عليه ولا من الأدب أن تجلس النساء مع الرجال ، ولا من الأدب أن يأكلن معهم ، وقد رأيت مرارًا بعينى أن الرجل يجلس على مائدة الطعام وامرأته قائمة تطرد الذباب عنه وبنته تحمل قلة الماء ! .

نعم ان معاملة الرجل للمرأة على هذه الطريقة الفظة المستهجنة تشاهد فى الغالب فى بعض الطبقات ، خصوصًا فى بلاد الأرياف ، لكن استعباد المرأة فى الطبقات الأخرى وفى المدن موجود على أشكال أخرى .

فالرجل الذى يحجر على امرأته ألا تخرج من بيتها لغير سبب سوى مجرد رغبته فى أن لا تخرج لا يحترم حريتها ، فهى من هذه الجهة رقيقة ، بل سجينة ، والسجن أشد سلبا للحرية من الرق . ولا يقال إن عدد الرجال الذين يسجنون نساءهم صار اليوم قليلاً ، فإنه وان قل بالنسبة إلى الماضى لكن كلنا نعلم أن من النادر جدًا أن تكون المرأة متروكة لإرادتها واختيارها فى ذهابها وإيابها على أن كلامنا الآن إنما هو فى مقام المرأة فى نفس أغلب الرجال وما يجب عليها فى اعتقادهم أن تعمل به وان تكون عليه . فسواء قل احتباس المرأة أو لم يقل فالمرأة المقصورة فى بيتها التى لا تفارقه تعتبر عندهم خير امرأة .

ولو أخذ المسلمون برأى الجهال من فقهائهم ، وهم أهل الرأى عندهم ، لرأوا من الواجب عليهم أن يسجنوا نساءهم وألا يسمحوا لهن بالخروج إلا لزيارة الأقارب فى العيدين ، ورأوا من الأفضل ألا تخرج من بيتها فى جميع الأحوال ، وقد عدوا من مفاخرهم ألا تخرج المرأة من خدرها إلا محمولة إلى قبرها ! .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا شك أن تقرير الحق للرجل فى سجن زوجته ينافى الحرية التى هى حق طبيعى للإنسان .

والمرأة التى يسوقها والدها كالبهيمة إلى زوج لا تعرفه ولا تعرف شيئا من أحواله معرفة تسمح لها بأن تتبين حقيقة امره وتحصل لنفسها رأيا فيه لا تعتبر حرة فى نفسها ، بل تعد فى الحقيقة رقيقة . ومن المعلوم أن عموم الآباء فى جميع طبقات الأمة يزوجون بناتهم على هذه الطريقة ، فيتخابرون مع الخطاب ثم يعقدون عقد الزواج ، أما هن فلا رأى لهن فى هذا الأمر الخطير الذى تتعلق به سعادتهن وشقاؤهن فى المستقبل ، ولا يقال إن حال الرجل فى ذلك كحال المرأة إذ هو أيضًا لا يعلم من أحوال مخطوبته شيئًا ، لأن الرجل يمكنه أن يتخلص من عواقب جهله بأن يطلقها فى أى وقت شاء أو يتزوج غيرها مثنى وثلاث ورباع ، أما المرأة التى تبتلى برجل لا ترضى نفسها بمعاشرته فليس لها إلى الخلاص منه سبيل ، فتزويج المرأة برجل تجهله ، وحرمانها حق التخلص منه ، مع إطلاق الإرادة للرجل فى إمساكها وتسريحها كيف يشاء ، هو استعباد حقيقى .

والمرأة التى يجب ألا تتعلم إلا فروض العبادة ، كما يقول الفقهاء ومن أخذ عنهم ، أو يجب ألا تتعلم إلا مقدارا محدودا من مبادئ بعض العلوم ، تحسب رقيقة ، لأن قهر الغرائز الفطرية والمواهب الالهية على لزوم حد مخصوص ومنعها عن النمو إلى أن تبلغ الكمال الذى أعدت له يعد استعبادًا معنويًا .

والمرأة التى تلزم بستر أطرافها والأعضاء الظاهرة من بدنها بحيث لا تتمكن من المشى ولا الركوب ، بل لا تتنفس ولا تنظر ولا تتكلم إلا بمشقة ، تعد رقيقة ، لأن تكليفها بالاندراج فى قطعة من قماش إنما يقصد منه أن تمسخ هيئتها وتفقد الشكل الإنسانى الطبيعى فى نظر كل رجل ماعدا سيدها ومولاها .

وبالجملة ، فالمرأة من وقت ولادتها إلى يوم مماتها هى رقيقة ، لأنها لاتعيش بنفسها ولنفسها ، وإنما تعيش بالرجل وللرجل ، وهى فى حاجة إليه فى كل شأن من شئونها ، لا تخرج إلا محفورة به ، ولا تسافر إلا تحت حمايته ولا تفكر إلا بعقله ، ولا تنظر إلا بعينه ، ولا تسمع إلا بإذنه ، ولا تريد إلا بإرادته ولا تعمل إلا بواسطته ، ولا تتحرك بحركة إلا ويكون مجراها منه ، فهى بذلك لا تعد إنسانا مستقلا ، بل هى شىء ملحق بالرجال .

انظر إلى صبى لا يزيد عمره عن خمس عشرة سنة ، وقارن بينه وبين والدته ، تجد أنها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أحط منه فى العقل والمعلومات والتجارب ، وانه أكبر منها شأنا ، ليس فقط فيما يتعلق بالأمور الخارجة عن المنزل بل فى نفس بيتها .

كيف لا وهو الذى يأمر وينهى فيه ، وهو الذى ينوب عنها فى اشغالها وإدارة بيتها وتدبير ثروتها ؟ .

انظر إلى امرأة تمشى فى الطريق ، ومعها خادم ، تجد فى نفسك لأول وهلة ان الخادم يشعر من نفسه أنه هو صاحب الإرادة والرأى والقوة ، وكأن لسان حاله يقول : إنى اؤتمنت على هذه الذات الجاهلة الضعيفة وعلى ملاحظتها وحراستها وحمايتها . لاحظ أن امرأة محجبة تمر على جماعة من أهل الخلاعة تجد انهم لا يتحاشون من اسماعها كل ما يخطر على بالهم من العبارات المخلة بالأدب ، وفى بعض الأحيان يتزامون عليها بأجسامهم ويلمسونها بأيديهم مع انه لم يصدر من تلك المرأة حركة يرتاب فيها وتغريهم بالاندفاع عليها والتهافت على هذه الأفعال القبيحة ، لم تصبر المرأة على هذا الاعتداء من الرجال ساكنة خائفة لا تنبعث إلى دفاع ؟ ولم لا يجرؤ هؤلاء الرجال على إتيان ما يأتونه من الأقوال والأعمال الشنيعة مع امرأة سافرة ؟ هل ذلك لأن المرأة المبرقعة أشد فتنة للرجال بجمالها من النساء السافرات ؟ كلا وإنما وقر فى نفوس الرجال عندنا أن البرقع والحبرة هما عنوان الجهل والضعف وآية الانخداع ، ورأوا فى عائلاتهم ان المرأة ليست محترمة ، ولا تحس باحترامها لنفسها ، وأنها سهلة القياد ، لينة المغمز ، تتبعه لأول إشارة بيدها أو كلمة يرميها ، وأنها تخشى الرجل ولا تجرؤ على تأديبه ، فاستخفوا بها ، وتجاسروا على امتهانها ، وتعودوا على ألا يحترموا امرأة مبرقعة إلا إذا وجد معها رجل ولو كان خصيًا ! .

فهل هذه الذات الحقيرة متمتعة بحريتها ؟ وهل مع هذا الامتهان تعد نفسها نفس إنسان ؟ .

سيقول قوم : كيف لمدع أن يدعى أن المرأة مستعبدة عندنا ، مع إنا نراها فى مكانة من السلطان على قلب الرجل منا بحيث تسخره لإرادتها وأهوائها ، وتصرفه عن أعماله لقضاء رغائبها ، وان الرجل ليتجشم الأسفار ويتردد بين المدينة والأخرى لينتقى لزوجته لباسا أو يختار لها نوعا من أنواع الحلى يرضى به هواها ويقضى به رغبتها ليستجلب رضاها ، ثم هى سيدة بيته ، لا يرفع فيه إلا ما رفعت ولا يضع فيه إلا ما وضعت ، فهل مع هذا كله يقال إن المرأة مسترقة للرجل ؟ نعم ، لا ننكر شيئًا من هذا كله ، ولكننا ننكر أن يكون ذلك عامًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عند جميع الناس ، كما ننكر أنه ناشئ عن احترام الرجل للمرأة واعتقاده باستحقاقها لهذه المعاملة بما لها من العقل والأدب وما كسبته من حق الصحبة الناشئ عن عقد الزواج ، وإنما يرفع المرأة أحيانا إلى تلك المنزلة افراط فى الشهوة من الرجل يحدثه براعة فى الجمال أو تفنن فى ضروب الاحتيال ، فهى سيدته ما تعلقت بها شهوته ، فإذا خمدت نيران الشهوة وعاد مابينهما إلى المعروف مما بين رجل وزوجته سقطت المرأة من أوج عزتها إلى حضيض الذلة ولبست ثياب الاسترقاق .

سيقال أيضا : إن حرية المرأة تستلزم فى الواقع أن يعاملها الرجل باحترام ، وألا يضغط على إرادتها وفكرها ، وأن يسمح لها بالخروج للزيارة والرياضة ، ولكن ما العلاقة بين حريتها وكشف وجهها واختلاطها بالرجال ومعاملتها لهم ؟ فالجواب : إن الزام النساء بالاحتجاب هو أقسى وأفظع أشكال الاستعباد ، ذلك لأن الرجال فى أعصر التوحش كانوا يستحوذون على النساء ، إما بالشراء كما بيناه وإما بالاختطاف .

وفى كلتا الحالتين كانوا يعتبرون أنفسهم مالكين نساءهم ملكا تاما وتبع ذلك أن الرجل جرد امرأته عن الصفات الإنسانية وخصصها بوظيفة واحدة وهى أن تمتعه بجسمها ، فأقرها فى مسكنه ، وألزمها بأن تلازمه ولا تخرج منه حتى لايكون لأحد غيره حظ فى أن يتمتع بها ولو بالنظر أو الحديث ، شأن المالك الحريص على ملكه الذى يريد أن يستأثر بجميع مزايا المتاع الذى يملكه .

ولما كان من المحال ألا تعرض ضرورة تقضى على المرأة بالخروج من منزلها فى بعض الأحيان أراد أن يتبعها بالحجاب حيث سارت فألزمها بستر وجهها إذا خرجت .

هذا الحجاب الذى قرره الرجل فى الاصل على زوجته تعدى بعد ذلك الى البنات والامهات والاخوات والى عموم النساء ، لان كل امرأة هى زوجة أو كانت زوجة أو مستعدة لأن تكون زوجة .

فالحجاب هو عنوان ذلك الملك القديم ، وأثر من آثار تلك الأخلاق المتوحشة التى عاشت بها الإنسانية أجيالا قبل أن تهتدى إلى إدراك أن الذات البشرية لا يجوز أن تكون محلا للملك لمجرد كونها أنثى ، كما اهتدت إلى أن تفهم ان سواد البشرة ليس سببا لأن يكون الرجل الأسود عبدًا للأبيض .

وليس من الغريب بقاء الحجاب بعد زوال السبب الذى أوجده ، أى بعد خروج المرأة عن ملكية الرجل ، فقد جرت سنة الله فى خلقه بأن الانتقال من طور الى طور آخر لا يكون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دفعة واحدة ، وانما يحصل بضروب من التغيير ربما لا يحس بها من كانوا موضوعا لها ، فكثيرا ما يظن الناس استحالة انتقاضهم عن حالة من الحالات مع انهم سائرون عنها منتقلون الى غيرها متحولون الى أردأ أو أحسن منها ، وهم لا يشعرون ، حتى اذا انتهت الحركة الى غايتها ظهر لهم انهم صاروا الى الطور الذى كانوا من قبل ينكرون .

فلما بطل حق ملكية الرجال على النساء اقتضت سنة التدريج ان تعيش النساء فى حالة وسط بين الرق والحرية حالة اعتبرت فيها المرأة انها انسان ، لكنه ناقص غير تام . كبر على الرجل ان يعتبر المرأة التى كانت ملكا له بالامس مساوية له اليوم ، فحسن لديه أن يضعها فى مرتبة أقل منه فى الخلقة ، وزعم ان الله لما خلق الرجل وهبه العقل والفضيلة وحرمها من هذه الهبات ، وانها لضعفها وقلة عقلها وميلها مع الشهوات يلزم أن تعيش غير مستقلة تحت سيطرة الرجل وان تنقطع عن الرجال وتحتجب بأن تقتصر فى بيتها وتستر وجهها اذا خرجت حتى لا تفتنهم بجمالها أو تخدعهم بحيلها ، وانها ليست أهلا للرقى العقلى والادبى فيلزم ان تعيش جاهلة .

وذلك هو السر فى ضرب الحجاب ، وعلة بقائه الى الآن ، فأول عمل يعد خطوة فى سبيل حرية المرأة هو تمزيق الحجاب ومحو آثاره .

ولما كانت تهمة المرأة بنقصان العقل هى الحجة التى اتخذها الرجال لاستعبادها وجب علينا أن نبحث فى طبيعة المرأة لنعلم إن كانت ، كما يقال ، أحط من طبيعة الرجل أم لا ؟ .

إذا سألنا الرأى العام فالجواب سهل معلوم . ولكن الرأى العام لا يصح أن يكون له صوت فى مسألة علمية كهذه ، لأن مبنى الرأى العام القضايا المشهورة ، التى صاغتها العادة وقررتها الألفة بدون بحث ولا تنقيب ، فهى مرجع العامة فى احكامها يردون إليها كل حادث طبيعى أو اجتماعى لا يعرفون أسبابه ، والرأى العام يعتبر أن تغير كل **عادة** ألفها مخالف **للطبيعة** لأنه لا يفرق بين العادة والطبيعة حيث يظن أن ما هو حاصل الآن كان كذلك وسيبقى إلى الأبد .

ولا ريب أن المرأة اليوم أحط من الرجل فى الجملة ، ولكن علينا أن ننظر هل هذه الحال طبيعية لها أو ناشئة عن طرق تربيتها ؟ تلك هى المسألة التى يلزمنا لحلها أن نرجع إلى الأصول العلمية لنعلم ما تقرره فيها .

رأى العلماء أنه لا يصح الحكم على طبيعة المرأة ومبلغ استعدادها للكمال الإنسانى بآثارها التى صدرت منها إلى الآن . وإنما يصح ذلك بعد أن تملك من حريتها ما يملك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرجل وبعد أن تشتغل بتثقيف عقلها مدة من الزمن تساوى المدة التى قضاها الرجال فى تربية ملكاتهم العقلية والأدبية ، غير أنهم حكموا بأن المرأة ليست مثل الرجل فى الخلقة وأنه يوجد بين الصنفين اختلافات تشريحية وفسيلوجية يمتاز بها كل صنف عن الآخر ، ولكن ليس فى هذه الاختلافات ما يدل على أن أحد الصنفين أرقى من الآخر أو أحط منه .

ذلك ما يستنتج من كلام العلامة « جاك لوريب » فى كتابه المسمى [المرأة امام المعلم] .

وقال الاستاذ فرشلو : « انى ألقيت دروسا كثيرة فى العلوم الحسابية وعلوم الاخلاق والفلسفة لطلبة العلم ، وكان بينهم كثير من النساء ، والذى شاهدته بنفسى هو انه لا يوجد فرق بين الصنفين ، وكانت نسبة الدرجات بينهما واحدة » .

وقال العلامة « مانتجازا » ، المدرس لعلم الإنسان والعضو فى مجلس الشيوخ الطليانى فى كتاب جديد سماه [فسلوجيا المرأة] : « جميع المناقشات التى تدور على خفة مخ المرأة فى الوزن وصغر جمجمتها وضعف اللفايف المخية ، تلك المناقشات عبث إذا أريد أن يتوصل بها على اختلاف القوى العقلية بين الصنفين » ثم قال :

« ما أكفر الرجل ! ألجأه كبره أن يزور حتى فى علم التشريح ، فلم يكتف بأن يغتصب المحل الأول فى العالم ، بل أراد أن يبرهن أن المرأة أقل منه فى الإنسانية وأنها فى مرتبة بين القرد والإنسان ، وهذا فيكون له الحق فى أن يجردها عن الحقوق التى منحها نفسه كأنه نسى أن الذات التى يريد أن يحط بقدرها هى أمه ، والحقيقة أن المرأة امام علم التشريح ليست أقل من الرجل ولا أرقى منه ، وإنما تختلف عنه ، لأن لها وظائف تقوم بها غير وظائف الرجل » .

وقد بين هذا العالم الاختلافات الدقيقة التى توجد بين الرجل والمرأة بالنسبة للاحساسات والعواطف ، فقال ما ملخصه : «إن السبب فى أهم ما تختلف فيه المرأة عن الرجل من الجهة الأدبية هو الاستعباد الذى استولى على المرأة زمانًا طويلاً حيث تغلب الرجل على المرأة فى الطبقة السفلى بقوة عضلاته وفى الطبقات الأخرى بعلو معارفه وتربيته ، وهذه المنزلة المنحطة قضت على المرأة بأن تستعمل حيل الرقيق لتدافع عن نفسها ، ويظهر أن الرجل يمتاز عليها بقوة عزيمته وزيادة الثبات فى أعماله ، ولكنها تمتاز عليه فى قوة الاحساس وتحمل الآلام ، وهى تصبر على الأمراض والعمليات الجراحية صبرًا يعجز عنه الرجل ، وربما كان السبب فى ذلك أنها أقل أثرة من الرجل أو انها اعتادت على الاستسلام والخضوع .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتمتاز المرأة على الرجل أيضا بأنها اضعف شهوة منه ، فالحب عند الرجل ميل شهواني إلى استيفاء اللذة الجسدية ، والحب عند المرأة وداد قلبي غايته امتزاج الروحين ، واستدل على ذلك بأن الرجال يستعملون جميع أنواع الحيل والخديعة مع النساء لاستمالتهن ، والكثير منهن مع ذلك يدافعن عن عرضهن ويتغلبن على شهواتهن وقال : إنه إذا عكس الأمر وفرضنا انه أبيح للنساء أن يستعملن مع الرجال لاستمالتهم ما يستعمله هؤلاء الآن مع النساء فربما لم يستطع رجل أن يحافظ على عفته ! .

وقال : « إن حب المرأة للخير من المألوفات المشهورة ، أما الرجل فيسود عنده حب النفس ، لذلك تراه يفتكر أولا في نفسه ثم في أولاده ، بخلاف المرأة ، فهي تفكر أولا في غيرها ثم في نفسها ، فهمّ الرجل أن يكون سعيدا ، وهمّ المرأة أن تجعل الغير سعيدًا . وهذا الاحساس يشاهد في جميع أعمال الحياة ، صغيرها وكبيرها ، وأعظم مثال لإيثار المرأة غيرها على نفسها هو حب الأم لولدها ، فهي تحبه أكثر مما يحبه أبوه ، وتحبه مهما كانت عيوبه بل يمكن أن يقال انه كلما كان ولدها سيئ البخت زاد حبها له ، والأب على عكس ذلك »

فالمرأة في رأى أعظم العلماء وأدقهم بحثًا مساوية للرجل في القوى العقلية ، وتفوقه في الاحساسات والعواطف ، وإنما يظهر للناظر وجود فرق عظيم بينهما في العقل لأن الرجال اشتغلوا أجيالاً عديدة بممارسة العلم فاستنارت عقولهم وتقوت عزيمتهم بالعمل بخلاف النساء فإنهن حرمن من كل تربية ، فما يشاهد الآن بين الصنفين من الفروق هو صناعي لا طبيعي .

لا نريد بهذا التساوي أن كل قوة في المرأة تساوي كل قوة في الرجل وكل ملكة فيها تساوي كل ملكة فيه ، ولكنا نريد أن مجموع قواها وملكاتها يكافئ مجموع قواه وملكاته وإن كان يوجد خلاف كبير بينهما ، لأن مجرد الخلاف لا يوجب نقص أحد المتخالفين عن الآخر .

فعلى أي دليل علمي يستند الرجال لاستعباد النساء ، وبأي حق جاز لهم أن يحرموهن من حريتهن ؟ لنفرض جدلاً أن عقل المرأة أقل من عقل الرجل ، فهل نقصان العقل في شخص يبيح أن يجرد من حريته ؟ اما يوجد بين افراد الرجال اختلاف في العقول أكبر من الاختلاف الموجود الآن بين الرجال والنساء ؟ أليس عقل المصري يختلف باختلاف طبقات الأمة المصرية ، ومع ذلك نرى جميع الرجال متساوين في تمتعهم بحريتهم البدنية ؟ ألا يوجد بين نسائنا المصريات من هن أكبر عقلاً وأكمل اخلاقًا من أزواجهن أو آبائهن أو ابنائهن ؟ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا يصح أن يكون اختلاف العقول سببا لتجريد الإنسان عن حريته بل الذى يجر إليه الاختلاف إنما هو ان يعلو فكر على فكر فيقوده بقوة الاقناع أو تسود إرادة على إرادة بقوة الاستمالة حتى تسخرها على طوع منها .

وما قررته الشريعة الإسلامية من حقوق المرأة ـ وقد أشرنا إليه فى ما تقدم ـ يقودنا إلى ان هذه السلطة الأدبية هى التى ترمى إليها الآية الشريفة التى ذكرت ان الرجال قوامون على النساء ، وقد نحت الشرائع الأوروبية هذا النحو فخولت للرجل مثل هذه السلطة على زوجته وسمتها سلطة الزوجية ، ومع ذلك فكل إنسان يرى النساء الغربيات متمتعات بحريتهن .

لنفرض جدلاً أيضًا ان حجاب النساء وسيلة لصيانتهن عن الفساد فهل يكفى ذلك لحرمانهن من حريتهن ؟ .

إذا كانت معاملة الرجال للنساء مجلبة للفساد فلماذا تداس حرية المرأة وتحترم حرية الرجل ؟ هل يختلف نظر العدل بالنسبة إلى الرجل والمرأة وهل يوجد حقان حق للرجال وحق للنساء ؟ أليس كل ذى اختيار موكولا إلى اختياره يتصرف به كيف يشاء متى لم يخرج فى عمله عما حدده له الشرع والقانون ؟ .

نرى أن مسئولية المرأة فى هذه الدنيا ، وفى الآخرة ، لا تقل أمام الشرع عن مسئولية الرجل ، ونرى ان القوانين لا تعافيها من العقوبات إذا ارتكبت جريمة ، ولا تقضى بتخفيف عقوبتها ، بل نرى ان الرأى العام جسم مسئوليتها حتى جعلها أشد من مسئولية الرجل ، فإذا استهوى رجل عمره أربعون سنة بنتًا عمرها خمس عشرة سنة ، وانتهز فرصة ضعفها وفسق بها يحكم الرأى العام ان هذه البنت الصغيرة هى التى فقدت شرفها ، ويهمل شأن الرجل كأنه لم يأت منكرًا ! أليس ذلك لأن الشرع والرأى العام يعترفان ان المرأة مسئولة عن أعمالها ؟ فإن كانت مسئولة بهذه الدرجة أليس ذلك لأن الشرع والرأى العام يعترفان أيضا بأنها حرة مختارة ؟ .

لا أظن ان عقلا يقبل ان تعتبر المرأة إنسانا كامل العقل والحرية من جهة استحقاقها لعقوبة الشنق إذا قتلت ، ثم تعتبر أنها ناقصة العقل ، بحيث تحرم من حريتها فى شئون الحياة العادية ! .

اعتقاد الرجل ان امرأته إذا منحت حريتها تسىء استعمالها لا يبيح له حرمانها منها ، لأنه لا يباح لإنسان ان يتعدى على آخر بسلب حريته والسيطرة على إرادته بحجة أنه يريد منعه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من ارتكاب خطيئة ، ولو جاز لدفع ضرر محتمل الوقوع تجريد الإنسان عن حريته لوجب وضع تسعين فى المائة من الرجال تحت قانون الحجاب منعا لهم من الفساد ! .

بل لو قبلت المرأة ان يوضع عليها الحجاب لم يعتبر قبولها هذا التزاما صحيحا بحيث يمتنع عليها بعد ذلك ان تحل عقدته ، لأنه التزام باطل ، لمنافاته للطبيعة البشرية والقواعد الشرعية .

على أن ما قيل من أن حرية النساء تعرضهن للخروج عن حدود العفة كله كلام لا أصل له ، تبطله التجارب وينبذه العقل ، إذ التجارب المؤسسة على المشاهدات الصحيحة تدل على أن حرية النساء تزيد فى ملكاتهن الأدبية وتبعث فيهن احساس الاحترام لأنفسهن وتحمل الرجال على احترامهن .

ولا نذهب فى تأييد هذا الرأى مذهب غيرنا بالاتيان باحصاء مخترع لا حقيقة له نشر بعضهم فى الجرائد الهزلية تفكهة للقراء ، ونسب فيه إلى أحد العلماء أنه شاهد أن المرأ الألمانية تخون زوجها سبع مرات ! والبلجيكية ست مرات وأربعة أخماس المرة ! والهولندي أربع مرات ! والطليانية مرة وخمسة أسداس ! والفرنساوية مرة واحدة ! وهكذا إلى أ وصل إلى التركية ، والمراد بها الشرقية ، إنها لا تخون زوجها إلا عشر المرة الواحدة ! .

فقد انتهى الهذيان بالمعتمد على مثل هذا الاحصاء إلى الاعتقاد بأن ما نشر فى تلك الجريدة على سبيل الهزل هو من (الأبحاث العلمية الدقيقة المستندة على الأرقام) ، ولم يخ بفكره أن الحصول على احصاء فى مثل هذا الموضوع هو من الأمور المستحيلة ، لأن وقائ الزنا لا يمكن احصاؤها إلا إذا وصلت إلى المحاكم ، ومعلوم انه لا يصل إلى المحاكم منها إ النادر .

ولا نسند رأينا إلى قضايا مسلمة تؤخذ من غير دليل ، كما يفعل أولئك الذين يدعون أ المرأة متى جلست مع الرجال فى مكان واحد مدة خمس دقائق وجب محو اسمها من قائ النساء الفاضلات ! . فإن كل قضية لا ترجع إلى أحد أنواع البديهيات المعروفة عند أه النظر لا تصح أن تكون مقدمة لدليل ، أولئك جماعة لو طولب الواحد منهم بدليل ع ما يقول لما وجد فى خزانة مخه إلا أن الرجل والمرأة هما دائمًا فى طوع شهواتهما ، هكذ شأنهم ، يستعملون من أنفسهم الأخلاق التى جبلوا عليها ، ويعتقدون أنها أخلاق الإنسا كلها ، فهم فى نظر أنفسهم يمثلون الرجل من حيث هو ، والمرأة على حالتها المعهودة الي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تمثل فى نظرهم المرأة من حيث هى ، وما دروا أن الرجال يختلفون فى أخلاقهم ومزاياهم إلى ما لا نهاية له ، على حسب الزمان والمكان وطرق التربية ، وأن المرأة تختلف خلائقها وآدابها على نحو ما يختلف به الرجال .

هذا الاختلاف الذى يعرض فى حياة النساء الأدبية ينشأ غالبا من اختلاف العادات .

اول شىء يطلبه الرجال عندنا من المرأة هو ان تكون عفيفة ، ولهم الحق فى ان يطلبوا منها ان تكون متحلية بهذه الفضيلة ، ولكنهم بذلوا ما فى وسعهم لمحو هذه الفضيلة ، وجعلها من المستحيلات ، وذلك لأن نظام المعيشة عندنا يبعث فى المرأة شدة الميل الى الشهوات ، فإن سجن المرأة والتضييق عليها فى وسائل الرياضة يعرضانها دائما لضعف الاعصاب ، ومتى ضعفت الاعصاب اختل التوازن فى القوى الأدبية . هذه حقيقة يلزم أن يعترف بها كل انسان ، فإن من الحقائق الثابتة ان الجسم إذا كان قويا وكان القلب يرسل الدم إلى جميع خلايا الجسم تشعر نفس الإنسان بقوتها ، فكما لا تنهزم عند ملاقاة المصاعب والمتاعب المادية فهى لا تضعف عن مقاومة الاهواء والنزعات الرديئة ، ومن المشاهد أن التعب الشديد والمرض المضعف يعقبهما فتور فى الجسم وانحلال فى القوى يؤثران فى الإرادة وفى العزيمة . فكما إذا حاول الجسم نهوضا لا يكاد يستطيعه فيسترسل مع الميل إلى الراحة كذلك تشعر النفس بعجزها عن ضبط اهوائها ومقاومة كل ميل تقتضى مدافعته جهدا ومشقة .

لا شك أن قوة البنية وسلامة الأعصاب هما من أهم أعوان الإنسان على ضبط نفسه ، وان ضعف البنية واعتلال الأعصاب هما من أهم الأسباب التى تجعل الإنسان آلة تلعب بها الشهوات والأهواء .

فإن كانت حاجة إلى الاستشهاد برأى بعض العلماء على ما نقول فإنى أنقل ما قاله رجل أجاد درس علم التربية وهو الدكتور فلورى .

قال فى كتابه المسمى [جسم وروح الولد] : « ان آلة العقل هى المخ ، فكل انحراف يعرض فى الصحة البدنية يؤثر فيه ، فإذا استوفينا شروط صحة الجسم أمكننا أن نحصل سلامة الإرادة وقوة الحكم ونحسن فى اخلاق المرء وآدابه » .

فالنساء المسجونات يحسبن قبل كل شىء نساء مريضات ، ولهذا فهن أشد تعرضا لمطاوعة شهواتهن من النساء اللواتى يتمتعن بحريتهن ! .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإذا اقترن الحجاب بالبطالة ، ولا يمكن انفكاك الحجاب عنها ، تبعها قتل كل فضيلة فى نفس المرأة .

هذا التلازم بين الحجاب والبطالة لا يروق لبعضنا التصريح بوجوده ، وربما يعجبهم ان يقال ان نساءنا المحجبات عندهن واجبات عديدة تشغل أوقاتهن ، وان منحهن الحرية المطلوبة قد يكون سببا فى تحويل عنايتهن عن هذه الواجبات وتوجيهها إلى أمور لا يعود منها نفع على المرأة ولا على بيتها . ولكن نحن لا يهمنا إلا تقرير الحقيقة كما هى ، نحن نقول إن وجود الواجبات شىء والقيام بها شىء آخر وان نساءنا اللاتى لا عمل لهن ولا شأن لهن خارج المنزل لا يجدن من الوقت ما يسع القيام بواجباتهن لازواجهن وأولادهن ، وانهن تركن شئون الحياة البيتية إلى غيرهن ، بخلاف النساء الغربيات اللاتى اتسعت دائرة أعمالهن حتى كادت تساوى دائرة اشغال الرجال ، فإنهن يجدن مع ذلك الوقت الكافى لتأدية جميع واجباتهن المنزلية وما سبب ذلك إلا أن العمل يدعو إلى العمل والراحة تدعو إلى الراحة .

ثم إن الطريقة التى يربى بها الأطفال فى البيوت لها مدخل عظيم فى انحطاط الآداب أيضا .

يمكننى ان اجاهر هنا ، بلا تردد ، ان صبيا من أولادنا ، ذكرا كان أو أنثى ، لا يزيد عمره عن عشر سنوات قد يحشد إلى ذهنه من الألفاظ والصور المحركة للشهوة ، وينمو فى قلبه من الميل مع ما تدعو إليه غريزة التناسل ، ويبلغ من ذلك ما لا يبلغه شاب أو شابة فى سن الخامسة عشرة أو الثامنة عشرة من أبناء البلاد الأوربية .

وليس لاختلاف الاقليم دخل فى ذلك ، وإن كان له أثر فهو أثر ضعيف ، وإنما الأثر الحقيق هو لطريقة تربية الأطفال .

لو كان الرجال الأذكياء والمتعلمون منا يلاحظون ما يقع ويقال أمامهم كل يوم ، لو كانوا يفتكرون فى ما يعرض على أعينهم وآذانهم فى الطرق والمجتمعات فى كل آن لاتفقنا جميعا فى هذه المسألة وغيرها من المسائل الأخرى التى لا سبب لاختلاف الرأى فيها إلا اهتمام بعضنا بالانتصار على بعض وعدم اهتمام أحد منا بأن يفهم ما يقول الآخر .

لو أمكننا أن نفصل جميع المؤثرات المادية والأدبية التى تتكون منها احساسات الطفل وأمياله لرأى القارئ بنفسه أن البنت التى تربى فى عائلة مصرية لا يمكن أن تنمو فيها خلال الفضائل ، ويكفينا أن نذكر هنا أمثالاً من هذه المؤثرات التى تقع فى العائلات المتوسطة التى هى أحسن الطبقات أدبًا .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فمنها أن أقارب الأطفال لا يتحاشون غالبا عن تسمية كل شيء باسمه الحقيقي ويذكرون الوقائع التي تجرى بين الزوج وزوجته أمامهم بدون أن يخطر على بالهم أن يأمروهم بالخروج في هذا الوقت إلى مكان آخر ، وأيضا أول شيء يأتي على لسان الزائر إذا صادف بنتا صغيرة في بيت هو أن يسألها إذا كانت تريد أن تتزوجه أو تتزوج بابنه الصغير ، وإذا كانوا عدة زائرين سألها كل واحد عمن اعجبها من بينهم ! .

ومنها حضور الأطفال في حفلات الأفراح ، ومشاهدتهم رقص الباغيات ، وسماعهم الأغاني التي تدور كلها على الحب الشهواني .

بمثل هذه المناظر وبمثل تلك العبارات تنبه البنت الصغيرة إلى ما كان يجب أن تغفل عنه وينبت فيها الميل الشهواني .

ثم إذا عرض أن بنتا عانقت صبيا في أثناء اللعب يوجه اللوم عليها من أهلها ، ويقال لها انها أتت أمرا فاضحا ، فإذا سألت البنت : أي عيب في ما فعلت ؟ أجابها المسئول بما يعن له وما تسمح له به تربيته ، وكلما تقدمت الصبية في السن زاد الحجر عليها وإبعادها عن مخالطة الرجال ، وفي هذا من استلفات ذهنها إلى ما بين الصنفين من الاختلاف ما يضطرها إلى البحث في هذا الأمر الذي يشغلها ويشغل أهلها إلى هذا الحد ، فتسأل عنه من تثق به من زميلاتها ، فتتعلم منهن بعضه ، وتشتغل مخيلتها بفهم الباقي .

فهذه المعيشة التي تمر على البنت ، وأهم ما فيها عندها الرجل وأحواله ونسبها إليه وعلاقاتها به وبعدها عنه وقربها منه ، هي بلا ريب أعظم مؤثر في مزاجها ، لأنها تجعل للوظائف التناسلية الشأن الأول في حياتها .

ولتأكد الرجال من صحة ما ذكرنا ، وشعورهم بأن النساء لا هم لهن ولا شاغل لعقولهن إلا شأنهن مع الرجال ، لا ترى رجلا بين المصريين يأتمن زوجته ويرضى بمعاملتها لرجل أجنبي عنها ، وفي بعض البيوت لا يأتمن الرجل شقيقه ولا يسمح لامرأته أن تكلمه وتكشف وجهها عليه ولو كان حاضرًا معها ، وكذلك في كثير من العائلات لا يختلط الرجل بشقيقة زوجته .

وليس من رأيي أن أعيب الرجال والنساء على سوء ظن بعضهم ببعض إلى هذا الحد لأن عوائدنا وأخلاقنا وتربيتنا الحالية قضت عليهم بألا يثق بعضهم ببعض ، وجعلت الحجاب الوسيلة الوحيدة لصيانة النساء ، ولم تجعل من الدين ولا من المروءة ولا من كرم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخلق ولا من حسن الأدب أدنى وسيلة لصيانة العفة والتنزه عن الفحش .

ولكن ليسمح لى القارئ أن آتى على بقية فكرى فأقول :

بقى الحجاب إلى الآن مستمرا للأسباب التى بيناها ، أى لأنه كان تابعًا لهيئتنا الاجتماعية الماضية ، من الجهة السياسية والعقلية والأدبية ، كنا محكومين بالاستبداد فظننا أن السلطة العائلية لا تؤسس إلا على الاستبداد ، فسجنا نساءنا وسلبناهن حريتهن ، وملكنا وحدنا حق رفع قيد الزواج ، واستعملنا فى تربية أولادنا الأمر والنهى والاخافة والضرب . وكنا جهالا فتخيلنا أن المرأة لا وظيفة لها ولا عمل لها إلا أن تكون موضعا لشهوة الرجل وواسطة من وسائط مسرته ، وفاتنا أنها هى أيضا إنسان مثلنا ، وأن لها الحق فى أن تسعى إلى طلب سعادتها بالوسائل التى وضعها الشارع تحت تصرف الرجال لطلب سعادتهم ، فلما أسقطنا منزلة المرأة بغير حق انتقم الحق منا وشدد انتقامه ، فحرمنا كذلك من السعادة الحقيقية وانحطت أخلاقنا وفسدت تربية أولادنا ، واستولى الحزن واليأس على قلوبنا حتى ظن الكثير منا أن حياة الأمم الإسلامية اقتربت من نهايتها ولم يبق لها فى التزاحم العام نصيب من النجاح ، وأخذوا يتباهون بالمدنية الإسلامية القديمة كلما تحدث الأوروبيون بعلومهم وفنونهم ، ويفتخرون بالتمدن العربى فى الأعصر الماضية كلما ذكر التمدن الغربى الحديث ، كما تسلى نفسها عجوز وصلت إلى سن الشيخوخة بتذكار جمالها مدة صباها .

لكنا اليوم قد تغيرت حالتنا الاجتماعية تغييرا كليا ، فأصبحنا أحرارا ونحب الحرية ، وبدأ التعليم الصحيح فى أن ينتشر بين أفراد أمتنا ، وتهيأت عقولنا إلى إدراك منزلة الإنسان فى الوجود ومرتبة المرأة فى البيت وشأنها فى العالم ، فهل يليق بنا بعد هذا أن نحافظ على العادات والتقاليد القديمة ، ونحرص على عادة الحجاب ونتخذها وحدها وسيلة لصيانة المرأة ، أو يكون من الأليق بنا أن نبحث عن وسيلة أخرى تكون موافقة لحالتنا الجديدة التى انتقلنا إليها ويكون من شأنها أن ترتقى بنا إلى ما هو خير منها ؟ .

وبعبارة أخرى : يوجد مذهبان **أحدهما** : ينصح الناس بالتمسك بالحجاب ، **والثانى** : يشير عليهم بإبطاله ، فأى هذين المذهبين يجب أن نختاره ؟ وما هو رائدنا فى الاختيار حتى لا نقع فى عاقبة الخطأ ؟ .

أما الحجاب فضرره أنه يحرم المرأة من حريتها الفطرية ، ويمنعها من استكمال تربيتها ويعوقها عن كسب معاشها عند الضرورة ، ويحرم الزوجين من لذة الحياة العقلية والأدبية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا يأتى معه وجود أمهات قادرات على تربية أولادهن . وبه تكون الأمة كإنسان أصيب بالشلل فى أحد شقيه .

ومزاياه تنحصر فى أمر واحد هو أنه يقلل الزنا ، حيث يحول بين الصنفين ، ويمنع الاختلاط بينهما فى الظاهر . وإن لم ينزع الميل إليه من النفوس . فيكون ما يسمونه عفة على حد ما قيل :

« إن من العصمة ألا تجد » فالأجساد فى صيانة ، وأغلب القلوب فى خيانة ! .

وأما الحرية فمزاياها هى إزالة جميع المضار التى تنشأ عن الحجاب ، وسبق ذكرها وضررها الوحيد أنها فى مبدئها تؤدى إلى سوء الاستعمال ، ولكن مع مرور الزمن تستعد المرأة إلى أن تعرف مسئوليتها وتتحمل تبعة أعمالها وتتعود على الاعتماد على نفسها والمدافعة عن شرفها حتى تتربى فيها فضيلة العفة الحقيقية ، التى هى ترفع النفس المختارة الحرة عن القبيح ، لا خوفًا من عقاب ولا طمعًا فى مكافأة ولا لوجود حائل ليس فى الإمكان إزالته بل لأنه قبيح فى نفسه .

وليس من الممكن أن تصل المرأة إلى هذه المنزلة الأدبية مادامت فى الحجاب ، ولكن من السهل جدا أن تصل إليها بالحرية .

تصل إليها كما وصلت إليها غيرها من النساء الغربيات ، فإنا نرى أنه كلما زيد فى حرية المرأة الغربية زاد عندها الشعور بالاحترام لنفسها ولزوجها ولعائلتها .

قال العلامة «ما تنجازا» : «أعظم شىء يؤثر فى أخلاق البنات الحرية التى تعطى إليهن من عهد طفولتهن» .

وقال : «إن الفضائل الجليلة التى تشاهد عند النساء اللاتى يتمتعن بحريتهن لا يصح أن تنسب إلى الاقليم ، لأنى وجدت هذه الفضائل فى « بيونس ـ آيرس » التى تشتد فيها الحرارة ويصفو فيها أديم السماء وتنمو فيها الثروة العمومية ، ولو كان لطبيعة الاقليم مثل هذا الأثر فى الأخلاق لفسدت أخلاق النساء فى تلك البلاد . كانت البنات عندنا فى القرن الماضى وفى مبدأ هذا القرن لا تخرج من الاديرة إلا عند الزواج ، وكن جاهلات بكل ما يتعلق بالحب فكن يتلقين دروس الحب من غير الزواج فى أغلب الأحيان ، ذلك لأن من القواعد العامة أن البنت التى لا تختار زوجها بل تكلف بقبوله تكون قد قطعت نصف المسافة التى توصلها إلى الخطيئة ، فلا شىء يقى البنت من الفساد مثل اختيارها زوجها بنفسها بعد أن تعرفه وتقارن بينه وبين غيره من الرجال » .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال فى وصف نساء وطنه : « إن المرأة الطليانية أقل من غيرها عفة لأنها تتزوج غالبًا من غير أن تحب زوجها ، وكذلك الحال تقريبًا فى نساء فرنسا » .

أما النساء الانكليزيات والأميركانيات والألمانيات فأثنى على كمال عفتهن ، ونسبها إلى طرق تربيتهن وتمتعهن بالحرية والاستقلال فى أعمال الحياة .

فالحجاب والحرية وسيلتان لصيانة المرأة ، ولكن ما أعظم الفرق بينهما فى النتائج التى تترتب عليهما ! حيث أن الوسيلة الأولى تضع المرأة فى صف الأدوات والأمتعة ، وتجنى على الإنسانية ، والثانية تخدم الإنسانية ، وتسوق المرأة فى طريق التقدم العقلى والكمال الأدبى .

فقد رأيت مما ذكرناه أن ما اخترناه فى تربية المرأة ووقاية عفتها ليس مبنيا على أمر نظرى لا يستند إلى واقع بل هو مؤسس على المشاهدة والتجربة .

وصل احترام الرجل الغربى لحرية المرأة إلى حد أن الأب يحجر على نفسه فتح الخطابات التى ترد لبنته ، وكذلك الزوج رأى الأجدر به ألا يفتح الخطاب الذى يرد إلى امرأته . وهذه المسألة الأخيرة كانت موضوع بحث مهم بين أعضاء جمعية المحامين الفرنساويين من منذ عشر سنين تقريبا ، وتقرر فيها أن سلطة الزوج لا تبيح له أن يطلع على أسرار زوجته لأن هذا العمل يعد تجسسا مهينا لحرية المرأة وشرفها .

نعم ، إن أغلب الزوجات يطلعن أزواجهن على ما يرد إليهن من الخطابات . كما أن أغلب الأزواج يعرضون المراسلات التى ترد إليهم على زوجاتهم ، ولكن يوجد فرق عظيم بين ما يحصل بالرضا وما يعد واجبًا بمقتضى حق يدعى .

بلغ من أمر احترام الرجل الغربى لحرية المرأة أن بنات فى سن العشرين يتركن عائلاتهن ويسافرن من أمريكا إلى أبعد مكان فى الأرض ، وحدهن أو مع خادمة ، ويقضين الشهور والأعوام متغيبات فى السياحة ، متنقلات من بلد إلى أخرى ، ولم يخطر على بال أحد من أقاربهن أن وحدتهن تعرضهن إلى خطر ما .

كان من حرية المرأة الغربية أن يكون لها أصحاب غير أصحاب الزوج ، ورأى غير رأى الزوج ، وأن تنتمى لحزب غير الحزب الذى ينتمى إليه الزوج . والرجل فى كل ذلك يرى أن زوجته لها الحق فى أن تميل إلى ما يوافق ذوقها وعقلها واحساسها ، وأن تعيش بالطريقة التى تراها مستحسنة فى نظرها .

ومع كل ذلك ترى نظام بيوت هؤلاء الغربيين قائما على قواعد متينة ! ونرى هؤلاء الأم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فى نمو مستمر ! ولم يحل بهم شىء من المصائب التى يهددنا بها أولئك الكتاب والفقهاء من قومنا الذين أطالوا الكلام فى شرح المضار التى تنتج عن اطلاق الحرية للنساء ! فكثيرا ما سمعنا منهم أن اختلاط الرجال بالنساء يؤدى إلى اختلاط الانساب ، وأنه متى اختلطت الانساب وقعت الأمة فى الهلاك .

فهذه ممالك أوروبا جميعها نساؤها ورجالها مختلطون ، فى كل أطوار الحياة وفى كل آن . وها هم اخواننا وأبناء وطننا المسيحيون واليهود الذين تركوا عادة الحجاب من عهد قريب وربوا نساءهم على كشف وجوههن ، ومعاملة الرجال ، فأين هم من الاختلال والهلاك ؟ ! .

لنترك هذه النظريات الخيالية التى لا قيمة لها أمام الوقائع .

دلت التجربة على أن الحرية هى منبع الخير للإنسان ، وأصل ترقيه ، وأساس كماله الأدبى ، وأن استقلال إرادة الإنسان أهم عامل أدبى فى نهوض الرجال ، فلا يمكن أن يكون لها إلاّ مثل ذلك الأثر فى نفوس النساء .

غاية الأمر أن كل تغيير يعرض على الانظار فى صورة مشروع يلتمس قبوله ولم يكن بدأ الناس فيه من قبل هو فى الحقيقة فكر سبق أوانه وقت عرضه ، ولهذا لا يفهمه ولا يقدره حق قدره إلا العدد القليل ممن يمتد نظرهم إلى ما يكنه المستقبل من الحوادث .

أنظر إلى حالة مصر : عاشت الأمة المصرية أجيالا فى الاستعباد السياسى ، فكانت النتيجة انحطاطا عاما فى جميع مظاهر حياتها ، انحطاط فى العقول ، وانحطاط فى الأخلاق ، وانحطاط فى الأعمال ، ومازالت تهبط من درجة إلى أسفل منها حتى انتهى بها الحال إلى أن تكون جسما ضعيفا عليلا ساكنا يعيش عيشة النبات أكثر من عيشة الحيوان فلما تخلصت من الاستعباد رأت نفسها فى أول الأمر فى حيرة لا تدرى معها ما تصنع بحريتها الجديدة .

وكان الكل لا يفهم لهذه الكلمة معنى ، ولا يقدر لها قيمة ، وكان الناس يستخفون ويهزأون بالحرية ، بل ويتألمون منها ، وينسبون إليها اختلال عيشتهم وعلل نفوسهم ، فكم من مرة سمعنا بأذننا أن سبب شقاء مصر هو تمتعها بالحرية والمساواة ! . ثم اعتاد القوم شيئا فشيئا على الحرية ، وبدأوا يشعرون بأن اختلال عيشتهم لا يمكن أن يكون ناتجا عنها ، بل له أسباب أخرى ، وتعلق بنفوس الكثير منا حب الحرية حتى صاروا لا يفهمون للوجود معنى بدونها ، ولنا الأمل فى أولادنا الذين يشبون على الحرية التامة ، يجنون جميع ثمراتها النفيسة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التى من أهمها تهيئة نفوسهم للعمل ، عند ذلك يعرفون جيدًا أن الحرية هى أساس كل عمران .

وهكذا يكون الحال بالنسبة لحرية النساء .

أول جيل تظهر فيه حرية المرأة تكثر الشكوى منها ، ويظن الناس أن بلاء عظيما قد حل بهم ، لأن المرأة تكون فى دور التمرين على الحرية ، ثم مع مرور الزمن تتعود المرأة على استعمال حريتها وتشعر بواجباتها شيئا فشيئا وترتقى ملكاتها العقلية والأدبية ، وكلما ظهر عيب فى أخلاقها يداوى بالتربية حتى تصير إنسانا شاعرا بنفسه .

ذلك لأن النمو الأدبى ، لا يختلف فى سيره عن النمو المادى ، فكما أن الطفل يحبو قبل أن يمشى ، ويتعلم المشى بالتدريج ، فيمسك الحائط ويستند على يد مرضعته ، ثم متى تعلم المشى وحده لا يحسنه إلا بعد تمرين يدوم مدة أشهر يقع فى خلالها مرات كثيرة ، كذلك الانسانية فى سيرها الأدبى لا تنتقل من حال إلى حال أحسن منها إلا بالتدريج وبعد تمرين طويل يعرض لها فيه كثير من التخبط والاختلال والتجارب المؤلمة حتى تستقيم فى سيرها .

تلك سنة الفطرة . فلا يجوز لنا أن نتخيل أن فى امكاننا الخلاص منها ولا الفرار من قيودها . كذلك لا يكون من الحكمة أن نرجع إلى الوراء أو نوقف تقدمنا إلى الامام .

فإن اردنا أن نصل إلى الغاية التى وجهنا إليها آمالنا فما علينا إلا أن نستسلم إلى حكم السنة الإلهية ، ونقبل المتاعب والمشاق التى بدونها لا يمكن الوصول إليها . وإلا كان مثلنا كمثل أب مجنون خاف على ولده إذا مشى أن يسقط على الأرض فمنعه المشى حتى كبر فعاش مقعدا مشلول الرجلين .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الواجب على المرأة لنفسها

أول ما يستوقف نظر الشرقى الذى يحل فى مدينة من مدن أوروبا هو المركز المهم الذى تشغله المرأة فيها ، ويظهر له من أول وهلة أن التقسيم المصطلح عليه فى بلادنا بين العيشة الداخلية والعيشة الخارجية ، هذا التقسيم الذى يحول بين اشتراك الصنفين فى جميع أطوار الحياة ومظاهرها ، ليس من القواعد المعترف بصحتها فى تلك البلاد .

فإذا ترك أوروبا وجال فى أرض أمريكا شخص بصره مندهشًا من المنظر العجيب الذى يراه ، واستولى الاستغراب على عقله إلى درجة الاضطراب . فيجد أن تقسيمه الغريب قد اضمحل حتى كاد يكون معدوما ، ويرى النساء يشتغلن بأشغال الرجال ، والرجال يعملن أعمال النساء بلا فرق ، ويسمع أهل أمريكا يتهمون سكان أوروبا بأنهم ظالمون نساءهم محجفون بحقوقهم كما يرمى الأوروبيون رجال الشرق باستعمال الاستبداد مع نسائهم ! .

هذا المنظر يراه الشرقى ويستغربه فى أول الأمر ثم ينساه .

ولا يفتكر فيه بعد ذلك ، فيعيش بجانب الغربيين وهو لا يعرف شيئا من أحوالهم ، وان أتى ذكرها عفوا فى بعض الجرائد أو الكتب فلا يحرك ذلك فى نفسه أدنى شوق للوقوف على معرفة حقيقتها واستطلاع ما خفى منها .

ذلك لأنه وقر فى نفسه أن عاداته هى أحسن العادات ، وأن كل ما خالفها ليس جديرا بالتفاته واهتمامه .

لكن طالب الحقيقة الذى تعود على طريقة الانتقاد العلمى لا يحكم فى الحوادث الاجتماعية على هذا الضرب من التساهل .

فإن رأى يوما فى إحدى الجرائد أن « الست غوردون » ترافعت أمام محكمة فرانسسكو الجنائية ودافعت عن رجل متهم بالقتل . ثم رأى يومًا آخر فى مجلة أن الست « كارى رينار » ، إحدى قسيسات الولايات المتحدة خطبت فى الكنيسة فى مدينة لوروا على ملأ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عظيم من الرجال والنساء . ثم رأى مرة أخرى أن الست « ستون » تدرس الاقتصاد السياسى فى كلية شيكاغو لطلبة العلم ذكورًا وإناثًا . ثم علم أن لتلك المحامية زميلات يشتغلن أمام جميع المحاكم ، ولتلك القسيسة زميلات فى كثير من الكنائس ، ولتلك الاستاذة زميلات فى أغلب المدارس ، وأن تلك النسوة قائمات بأعمالهن على طريقة لا تزيد ولا تنقص فى الاتقان عما يقوم به الرجال فى أعمالهم فماذا يعتقد حينئذ ؟ يعتقد أن قول الشاعر :

كتب الحرب والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

هو قول لا ينطبق على الحقيقة فى شىء ، فلا يصح الاستناد عليه فى الرد علينا . ونحن نعذر الشاعر الذى لم يفعل سوى حكاية حال النساء التى وجدهن عليها فى عصره . ولكن هل يمكن أن نعذر أنفسنا فى اعتقادنا أن النساء لا يصلحن إلا لجر الذيول ، مع أن نظرة واحدة فى الأعمال النفيسة التى يأتى بها النساء فى الغرب تكفى فى العلم بأن حياة المرأة تصلح أن تكون مملوءة بشىء أفضل من اللهو واللعب وجر الذيول ؟ ! .

هذه الصورة التى شخص بها الشاعر صورة المرأة ليست صورة المرأة الحقيقية لأنها ليست صورة إنسان ، بل ولا حيوان ! ، اذ ليس فى الوجود حى إلا وله وظيفة يؤديها وعمل يشتغل به ، ولا يوجد بين أنواع الحيوانات ، من أفضلها إلى أدناها ، فرد إلا وهو خاضع لقانون التزاحم فى الحياة .

إذا أردنا أن نرتب أعمال الإنسان بحسب أهميتها نجد أنها تنقسم إلى ثلاثة أنواع :

أولها : الأعمال التى يحفظ المرء بها حياته .
وثانيها : الأعمال التى تفيد عائلته .
وثالثها : الأعمال التى تفيد الوجود الاجتماعى .

ومن البديهى أن كل تربية صحيحة يجب أن تمكن الإنسان من القيام بهذه الأعمال وأن تراعى هذا الترتيب الطبيعى . فالمعارف التى تضمن سلامة الحياة والقيام بالضروريات والحاجات اللازمة لها هى أهم من غيرها ، فيلزم أن تفضل على المعارف التى تختص بالواجبات العائلية ، لأنه لا يمكن القيام بأى واجب عائلى إلا بعد قضاء الواجبات الأولى . كذلك المعارف التى ترشد الإنسان إلى معرفة واجباته العائلية هى مقدمة على المعارف التى تختص بالواجبات الاجتماعية ، لأن قوة الهيئة الاجتماعية متوقفة على حسن نظام البيوت .

اذا تقرر ذلك نقول : إن التربية التى تشمل هذه الأنواع الثلاثة ، على الترتيب الذى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وضعناه ، هى لازمة للرجال والنساء على حد سواء .

ولكن ، دعنا الآن من المزايا والحقوق السياسية ، فإنى ما طلبت المساواة بين المرأة والرجل فى شىء منها . لا لأنى أعتقد أن الحجر على المرأة أن تتناول الأشغال العمومية ـ حجرا عاما مؤبدا ـ هو مبدأ لازم للنظام الاجتماعى ، بل لأنى أرى أننا لا نزال إلى الآن فى احتياج كبير لرجال يحسنون القيام بالأعمال العمومية ، وأن المرأة المصرية ليست مستعدة اليوم لشىء مطلقا ، ويلزمها أن تقضى أعواما فى تربية عقلها بالعلم والتجارب حتى تتهيأ إلى مسابقة الرجال فى ميدان الحياة العمومية .

لهذا نترك الكلام على الأعمال والمعارف التى تتعلق بالنوع الثالث ونقتصر فى الكلام هنا على الأعمال والمعارف التى تختص بالنوعين الأولين .

مهما اختلف الناس فى فهم طبيعة المرأة لا يجوز أن يدعى أحد أنها يمكنها أن تستغنى عن الأعمال التى تحافظ بها على قواها الحيوية وتعدها للقيام بحاجات وضرورات الحياة الإنسانية .

كذلك مهما اختلفنا فى تحديد وظيفة المرأة فى العالم لابد أن نعترف أنها لا يمكنها أن تتخلى عن الأعمال والمعارف التى تتعلق بواجباتها العائلية . اذن فكل تعليم يتعلق بهذين النوعين من الأعمال يكون نافعا ، وكل تربية تؤهل المرأة إلى المدافعة عن نفسها وتحسين حال بيتها هو أيضا نافع .

يظن الكثير منا أن المرأة فى غنى عن أن تتعلم وتعمل ، ويزعمون أن رقة مزاج النساء ونعومة بشرتهن وضعف بنيتهن يصعب معه أن يتحملن متاعب الكد وشقاء العمل .

ولكن هذا الكلام هو فى الحقيقة تدليس على النساء ، وإن كان ظاهره الرأفة عليهن .

والناظر فى أحوال هيئتنا الاجتماعية يرى من الوقائع المخزنة ما يجعله على بينة من ذلك . يرى أن الرجل والمرأة هما خصمان لا يتفقان إلا فى لحظات قليلة ، وأنهما يتحاربان آناء الليل وأطراف النهار ، يريد الرجل أن ينتهز ضعف المرأة وجهلها ليجردها عن كل ما تمتلكه ويستأثر وحده بالمنافع ، وتجتهد المرأة على قدر إمكانها فى الدفاع عن نفسها ، ولا تجد إلى ذلك سبيلا .

ولو جمعت الوقائع القضائية بين الصنفين فى كتاب لكانت أحسن ما يمكن أن يكتب للدفاع عن حقوق المرأة .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا أظن أنى مبالغ إن قلت أنه متى اختلطت مصلحة الرجل بمصلحة المرأة ، لأى سبب من الأسباب ، سواء كان لزواج وقع بينهما أو لاشتراك فى ملك آل إليهما أو لتعهد ارتبطا به ، فأول ما يسبق إليه فكر الرجل هو أن يسلب من المرأة ما يستطيع من حقها ، والمسكينة غافلة عن الأخطار التى تحدق بها ، وإن اكتشفتها فلا يكون فى الغالب إلا بعد خرابها وعلى أى حال متى وقعت فى الشرك لم يبق لها من حيلة إلا البكاء والعويل لأنها ترى نفسها فى حيرة وارتباك لا تدرى معها ماذا تصنع للخلاص .

وكل المصريين يعلمون أن النساء فى الوجه القبلى بعامة كن محرومات من حقوقهن فى التركات التى يرثن فيها بمقتضى أحكام الشريعة . وأن هذه الحال بقيت مستمرة إلى أن دخل نظام المحاكم الأهلية فى الصعيد . حتى أن بعض المديرين الذين أخذ رأيهم فى تشكيل المحاكم الجديدة فى الوجه القبلى كانوا يعدون من موانع تشكيلها أنها لو شكلت يكون من أحكامها أن يعطى النساء حقوقهن فى التركات ، وأن فى هذا تغييرا كبيرا للعادات المتبعة فى تلك البلاد ! .

وليس فى هضم حقوق النساء شىء من الغرابة ولا هو مما يوجب الدهشة لأحد .

نحن نفهم أن رجلا يعيش فى عالم الخيال يكتب فى مكتبه على ورقة أن ليس على النساء إلا أن يقرن فى بيوتهن خاليات البال تحت كفالة وحماية الرجال ، نفهم ذلك لأن الورق يتحمل كل شىء ! .

وليس من الصعب وضع نظريات خيالية على هذه الطريقة . إذ يكفى فى ذلك تركيب بعض جمل مسبوكة فى قالب لطيف ليقيم الكاتب نفسه مشرعا حكيما ، ويحكم على القوانين والعادات والأخلاق .

وإنما يجد الصعوبة رجل اعتاد على أن يحل النظريات ويختبرها بقياسها إلى الواقع . فإنه إذا أراد مثلا أن يحصل لنفسه رأيا فى ما هى حقوق النساء التى نحن بصددها يجب عليه أولا : أن يسوق نظره إلى الوقائع التى تمر أمامه . أعنى أن يطبق نظريته على الوقائع ويتصورها فى ذهنه منفذة ومعمولا بها فى قرية ثم فى مدينة ثم فى إقليم ، وتتمثل أمامه النساء فى جميع أعمارهن وأحوالهن وطبقاتهن ، فيراهن بنات ومتزوجات ومطلقات وأرامل ، ويراهن فى المدرسة وفى البيت وفى الغيط وفى الدكان وفى الأماكن الصناعية ويقف على سلوكهن مع أزواجهن وأولادهن وأقاربهن والأجانب ، ثم يعرف البلاد التى للنساء فيها شأن غير ما لنسائنا فى بلادنا ، وكيف انهن يستعملن حقوقهن والنتائج التى ترتبت على هذا الاستعمال ، ويقف على حالة المرأة فى الأزمان الخالية والتقلبات التى طرأت عليها .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك عمل ليس بالسهل ، لأنه يحتاج إلى معلومات جمة ومشاهدات كثيرة .

فإذا توفر له ذلك كله ، لم يتيسر له أن يحكم فى المسألة حكما قاطعًا ، لأنه يعلم أن رأيه قائم على مقدمات ظنية ، فلا تكون نتائجها إلا تقريبية ، لذلك تراه دائما على طريق البحث لا يركن إلى ما وصل إليه جهده إلا ليضعه قاعدة لعمل مؤقت ، ولا يأنف من تعديل رأيه بحسب ما يقتضيه الحال ويظهره العمل .

والأمر بالعكس عند صاحب النظرية الخيالية ، فهو يعتقد أن قضيته تشبه قضية حسابية فهى لا تخطئ أبدا ، مع أنها مؤلفة مع معان عامة مبهمة لا يستقر الذهن فيها على شىء محدود ـ مثل ضعف المرأة وقوة الرجل وتقسيم المعيشة إلى داخلية وخارجية وهكذا ـ هذه المعانى تملأ عقله ، ولكونها مجردة عن الوقائع والمشاهدات فهى فى الحقيقة ألفاظ يكون عنها قاعدة عامة صالحة لكل زمان ومكان .

فهو لا ينظر إلى الأشخاص الحقيقيين ، ولا يرى نفسه محتاجًا إلى أن ينظر إليهم ولا أن يبحث فى أحوالهم ، ولا يخطر بباله أن للمادة الإنسانية صورة غير الشكل الخيالى الذى ملك عقله ، لذلك لايهتم بأن يرى تلك المادة فى صورة امرأة راعية أو زارعة أو صانعة أو تاجرة ولا أن يبحث إن كانت غنية أو فقيرة ، عائشة وحدها أو فى عائلة ، ساكنة فى المدن أو القرى أو البادية .

هذه الصور العديدة المختلفة لا تنفذ إلى مداركه ، ولا تقر فيها ، لأن جميع نوافذها قد سدت بجسم النظرية التى احتلت عقله من أوله إلى آخره حتى لم يبق فيه مكان لشىء آخر .

فهو ان كتب أو تكلم لا يكتب ولا يتكلم عن امرأة حية ذات لحم ودم واحساس ووجدان ، وإنما يكتب ويتكلم عن المرأة التى فى ذهنه .

وهى امرأة شابة سنها بين العشرين والثلاثين ، جميلة المنظر رقيقة الطبع ، شهوية المزاج تكفى إشارة منها لكى تنال ما تشتهيه نفسها ، لأنها ذات ثروة عظيمة ، أو لأن لها بعلا وافر الثروة ولا يبخل عليها بشىء ، أما أخلاقها فانحطاط النفس والميل إلى الكذب والاحتيال والتطلع إلى أعمال السوء ، لا يحول بينها وبين ذلك إلا الحكم عليها بملازمة البيت والاحتجاب عن الرجال .

ولا نرى فى تمثيل المرأة فى أذهاننا بهذا المثال إلا توارثنا آراء العرب فيها .

ذلك أن حياة العرب كانت حياة حرب وقتال ، وأرزاقهم كانت من الغنائم ، وغنى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عن البيان أن أمة معاشها متوقف على القتال لا يمكن أن يكون فيها للمرأة شأن كبير ، إذ المرأة فى هذه المعيشة لا تستطيع ان تجارى الرجل ، ولذلك نزلت درجتها عندهم وسقطت منزلتها بينهم ، حتى حسبت من المتاع وأدوات الزينة ، وتناولها السلب وعدت من الغنائم كما عد غيرها من الأموال .

ومن هذا نتج التسرى وتعدد الزوجات .

وكما ان المرأة لم يكن لها عمل عند الأمة العربية ، لانحصار المعيشة كلها فى الغزو والدفاع عن القبيل كذلك .

لم يكن لها عمل فى العائلة ، لأن التربية عندهم كانت قاصرة على تغذية جسم الطفل بالرضاعة والأكل حتى ينشأ رجلاً مقاتلاً ، لا عالمًا فاضلاً .

فلا عجب إذا رأينا فى كلام العرب وشعرهم وقصصهم ، بل وفى مؤلفات فقهائهم وعلمائهم وفلاسفتهم ، ما يدل على احتقارهم للمرأة .

هذا هو منشأ تولد صورة المرأة فى عقول المسلمين ، وهى صورة حقيقية إذا نظر إلى الماضى ، ولكنها مزورة إذا نظر إلى الحال والمستقبل ، ذلك لأن المرأة المصرية اليوم لا تشابه المرأة العربية التى كانت تعيش من آلاف السنين ، لا فى الظاهر ولا فى الباطن ، وتختلف عنها فى الملبس والمأكل والمسكن وفى العادات والاخلاق والحاجات والضرورات ، لأن الحاجة الاجتماعية والاقتصادية التى هى موجودة فيها الآن تغيرت تغييرا كليا عما كانت عليه فى الماضى ، وتبع هذا التغيير لوازم وحاجات كانت مجهولة عند نساء العرب .

فالمرأة العربية كانت تكتفى من طعامها بخبز من شعير ، ومن ملبسها بقميص من قطن ومن مسكنها ببيت من شعر ، وتحصيل ذلك وتدبيره لا يحتاج إلى علم واسع وحذق كبير . والمرأة العربية عاشت جاهلة بالشئون المعاشية ، لأن عائلتها وقومها لم يكونوا محتاجين إليها فى قوام حياتهم العائلية والاجتماعية ، والمرأة العربية كانت مستعبدة لأنها كانت فى الحقيقة متاعًا يدخل فى حوزة الرجل بالسلب أو بعقد هو أقرب للبيع منه إلى الزواج .

أما الآن فنحن فى عصر أمن الناس فيه بعضهم بعضا ، واستقر النظام فيهم ، فلم تبق الحرب شغلا شاغلا لجميعهم ليدفع بعضهم غائلة بعض ، وأصبح الناس غير محتاجين إلى الغزو فى كسب أرزاقهم ، فبعد أن كانت قيم الرجال تغلو وترخص وتعلو وتنحط على حسب غنائمهم فى القتال وحسن بلائهم فيه ، وبعد أن كان الفائق فى الشجاعة وقوة البأس هو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صاحب السلطان الأعلى ، والضعفاء كلهم تحت كنفه ، انقلب الحال ، ولم يبق للقتال حاجة إلا فى أحوال مخصوصة يتولاه فيها أناس معروفون ، وأقبل أفراد الأمة رجالا ونساء بعضهم على بعض يتنافسون فى أمور أخرى ، فمنهم المتنافسون فى المجد بالعلم ، ومنهم المتسابقون إليه بالثروة ، وفيهم المجدون فى طلبه بالصناعة والتجارة والزراعة ، واتسع الميدان لتجادل العقول ، والمرأة إنسان مثل الرجل زينتها الفطرة بموهبة العقل فحق لها أن تسمو اليوم إلى ما يقرب من درجته ، إن لم تستطع ان تساويه فيها ، ثم تبع هذه الحالة كثرة الحاجات ، وأصبح المقصر فى سعيه ، الساقط فى عزمه ، القاعد فى كسله وجهله مهددا بالموت ، محفوفا بخطر العدم ، وفتح على الناس بذلك باب جهاد جديد ، فأهل البلد الواحد يتزاحمون فى طرق الكسب ويتدافعون فى سبله بوسائل العمل وحيل العقل وجميعهم يزاحم الأجنبى الذى سهل عليه مخالطتهم بسهولة المواصلة وتوافر أسباب الأمن وما هذا الجهاد بالهين السهل ، بل هو مما يحتاج إلى إعمال القوى العقلية والبدنية أكثر مما يحتاج إليه القراع بالسيوف والمراماة بالسهام .

ولقد استدار الزمان على المرأة ورجع بها إلى قانون الفطرة ، فعرض لها من الحاجات مالا يمكن معه أن تعيش مقصورة فى بيتها ، فهى مضطرة رغما عنها أن تدخل فى ما دخل الرجال فيه وأن تعمل لتكسب وتعيش وتغلو وتعلو فهى بحكم هذه الضرورة فى أشد الحاجات إلى تعلم ما يمكنها من بعض الغلبة فى هذه المزاحمة العظيمة .

وما نسمعه الآن من صياح النساء وعويلهن وشكواهن من الرجال لعدم القيام بالانفاق عليهن أو اغتيال حقوقهن ومن أحاديث تطوح الكثير منهن فى مهاوى الرذيلة لسد بعض الحاجات يؤيد ما قلنا ويظهر لكل نظر صواب ما بينا .

وإنا نسأل مجادلينا فيما نحن بصدده : هل يمكنهم أن يقولوا أن لا حاجة للمرأة تدعوها إلى معرفة وجوه الكسب وارتفاع المكانة ؟ أو يقولوا : إنها فى حاجة إلى ذلك ، ولكن ـ واأسفاه ـ ليس فى فطرتها ولا فيما وهب الله لها من القوى ما يهيئها لأخذ أهبتها فى هذا الجهاد ؟ .

هذه المسألة لا تحل ببعض كلمات مثل : كون المرأة ضعيفة أو قاصرة العقل ، لأن الضعيف والقوى وصاحب العقل الكبير وذا العقل الصغير والجاهل والعالم كلهم يستوون أمام ضرورات الحياة ، وإنما الذى يفيد فى فهم حقيقة هذه المسألة وحلها هو أن يعرف أولاً هل يوجد نساء ليس لهن عائل يقوم بحاجاتهن ، أو يوجد لهن عائل لكن كسبه لا يكفى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لقضاء ما يحتجن إليه ؟ ثم إذا كان يوجد نساء من هذا الصنف فما عددهن ، وهل هو كثير أو قليل ؟ .

والذى يمكننا الرجوع إليه فى ذلك هو تعداد أهالى القطر المصرى الذى حصل فى سنة ١٨٩٧ ، وهو آخر إحصاء جرى . جاء فى هذا الاحصاء أن جملة النساء المصريات اللاتى يشتغلن بصنعة أو حرفة هو ٦٣٫٧٣١ أى أنه يوجد الآن فى مجموع المصريات اثنتان فى كل مائة امرأة يشتغلن بصنعة ، ولم يدخل فى هذا الاحصاء نساء الأرياف اللاتى يشتغلن بالزراعة ، ولا النساء الأجنبيات اللاتى بلغ عدد المحترفات منهن بصنعة عشرين فى المائة .

وغنى عن البيان أن هاته المحترفات هن نساء لا عائل لهن ، لما نعهده من أن الرجال لا يسمحون لزوجاتهم ولا لبناتهم أن يحترفن بصناعة مالم يكونوا أنفسهم عاجزين عن كل كسب .

واذا رجعنا إلى مشاهداتنا نجد أن النساء اللاتى لا عائل لهن يزدن عن هذا المقدار أضعافه لأن الأغلب منهن يعيش عالة على أقاربهن . ومنهن من يستعمل لكسب العيش وسائل لا يعترف بها ، وأضيف على هذا الصنف أولئك الزوجات اللاتى لا يكفى كسب أزواجهن لضرورات معاشهن ومعيشة أولادهن ، فهن مع أزواجهن دائما فى نزاع وشقاق ثم تزدحم أقدامهن فى ساحات المحاكم الشرعية للمطالبة بالنفقة فاذا قدر القاضى للزوجة قرشين فى اليوم صاح الزوج هذا كثير وعدد هؤلاء النسوة لا ينقص عن مجموع من سبقهن .

اذا سلمنا أن عدد النساء المصريات اللاتى ليس لهن عائل لا يزيد عن اثنين فى المائة من مجموع النساء المصريات . أفلا ينبغى لهؤلاء النسوة اللاتى قضت عليهن ضرورات الحياة بمزاحمة الرجال الأقوياء لكسب عيشهن أن يتهيأن إلى النجاح قبل الدخول فى معترك الحياة بالوسائل التى يستعد بها الرجال أنفسهم ؟ وهل يكون من الحق والعدل أن يحرمن من التربية التى تؤهلهن للدفاع عن أنفسهن ؟ وهل من مصلحة للرجال أو لعموم الهيئة الاجتماعية أن يعيش هؤلاء النساء ضعيفات جاهلات فقيرات ؟ .

نحن لا نجادل فى أن الفطرة أعدت المرأة إلى الاشتغال بالأعمال المنزلية وتربية الأولاد وأنها معرضة لعوارض طبيعية كالحمل والولادة والرضاع لا تسمح لها بمباشرة الأعمال التى تقوى عليها الرجال ، بل نصرح هنا أن أحسن خدمة تؤديها المرأة إلى الهيئة الاجتماعية هى أن تتزوج وتلد وتربى أولادها ، هذه قضية بديهية لا تحتاج فى تقريرها إلى بحث طويل ، وإنما الخطأ فى أن نبنى على ذلك أن المرأة لا يلزمها أن تستعد بالتعليم والتربية للقيام بمعاشها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وما يلزم لمعيشة أولادها إن كان لها أولاد صغار عند الحاجة .

وذلك لأنه يوجد فى كل بلد عدد من النساء لم يتزوج وعدد آخر تزوج وانفصل بالطلاق أو بموت الزوج ، ومن النساء من يكون لها زوج ولكنها مضطرة إلى كسب عيشها بسبب شدة فقره أو عجزه أو كسله عن العمل ، ومن النساء عدد غير قليل متزوجات وليس لهن أولاد ، كل هؤلاء النسوة لا يصح الحجر عليهن عن تناول الأشغال الخارجية عن المنزل بحجة أن لهن رجالا قائمين بمعاشهن ، أو لأن عليهن واجبات عائلية ، أو لوجود عوارض طبيعية تحول بينهن وبين العمل .

نحن لا نقول للمرأة : اهجرى الزواج ولا تبغى النسل أو اتركى زوجك وأولادك فى البيت واقضى أوقاتك فى الطرق وعيشى كما يعيش الرجال . فإنا نكرر القول بأننا نود أن كل امرأة تكون زوجة وأن كل زوجة تكون أما . ولكن هذا لا ينسينا أن الواقع هو غير ما نتمنى إذ الواقع أن عددا عظيما من النساء ليس لهن عائل ولا واجبات عائلية .

هذا القسم من النساء هو قليل عندنا اليوم بالنسبة للبلاد الغربية ، فإننا لو أخذنا آخر احصائية فى فرنسا لوجدنا أنه يوجد ٣,٦٢٢,١٧٠ من النساء غير متزوجات و ٢,٠٦٠,٧٧٨ أرامل و ٩٢٤,٢٨٦ متزوجات وليس لهن أولاد ، أى يوجد فى فرنسا زيادة عن خمسة ملايين من النساء صالحات للعمل مضطرات إليه بدون أن يكون فى أعمالهن ضرر يلحق بعائلاتهن .

ولكن مع مرور الزمن وتقدم المدنية فى بلادنا سيزداد عدد النساء الخاليات عن الزواج وبدل أن يوجد اليوم اثنان فى المائة من النساء المصريات يتعيشن بصنعة أو حرفة سيوجد عن قريب أضعاف هذا العدد ، ذلك لأن الحوادث الاجتماعية خاضعة لقوانين طبيعية يسهل معها العلم بما سيكون من أمرها فى المستقبل .

لهذا يمكننا أن نؤكد أن عدد النساء المحترفات لابد أن يزداد فى كل سنة عن الأخرى لأننا سائرون فى الطريق الذى سارت فيه أوروبا قبلنا .

ولا خلاف فى أن عدد الزواج فى أوروبا هو أقل منه فى الشرق ، وسبب ذلك أن الواحد منهم لا يتزوج بالسهولة التى يتزوج بها الواحد منا ، فإن الأوروبى يطلب من الزوجة قرينا يرافقه طول حياته وصاحبا يشاركه فى جميع أعماله وأفكاره وعواطفه ، فهو يطلب لها جميع الصفات التى يبحث عنها الواحد منا إذا أراد أن يتخذ له صديقا ، فالعثور عليه يكون صعبا . وأضيف على ذلك سببا آخر ، وهو أن الحالة الاقتصادية فى البلاد المتمدنة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا تسمح للفرد أن يكون قادرا على كسب عيشه قبل بلوغه سن الثلاثين إلا فى النادر ، لأنه يصادف فى طريقه مزاحمات عظيمة ، وعليه أن يخرق الصفوف التى أمامه ، هذا إن ساعده الحظ وحسن الاستعداد على نيل مركز فى التجارة أو الصناعة أو الحرف الأدبية ، والكثير منهم يقضى حياته فى البحث ولا يجد شيئا .

ومن الاحتياط عندهم ألا يتزوج الشخص قبل أن يكون على ثقة من وسيلة للرزق يحصل بها ما يكفى لمعاشه ومعاش أولاده ، لأنهم يشعرون بما يجب عليهم لعائلاتهم ولا يرضون أن يكونوا سببا فى شقاء أزواجهم وأولادهم ، فإنما الجاهل هو الذى يحمله الطيش على التعجيل بالزواج ويستهين بما تفرضه عليه تلك الجامعة ، ولا يعرف لأهله حقا عليه .

فنحن مساقون فى هذا الطريق بقوة لا يستطيع أحد مقاومتها ، ويظهر لى أن الزواج عندنا قد بدأ فى التناقص ، فانى أعرف كثيرا من الذكور والاناث تجاوزوا السن الذى يحصل فيه الزواج عادة ، ولزمتهم العزوبة مختارين أو مضطرين ، ولكن لا أدرى هل ذلك عام أو خاص ببعض المواضع ، وإنما يمكننى أن أحقق أن متوسط السن الذى يحصل فيه الزواج زاد عما كان عليه فى الماضى ، فهو الآن ما بين العشرين والثلاثين فى الغالب وكان فيما مضى سن البلوغ ، وكثيرًا ما كان يحصل الزواج قبله .

وليس يفيد شيئا أن يصبح أرباب الاقلام عندنا ناقمين على ما وصلت إليه حالنا اليوم وما ستصل إليه على ممر الأيام وأن يستشهدوا بما وقعت فيه أوروبا من نقصان عدد الزواج فيها واحتراف النساء بأشغال الرجال ، ذلك لا يفيد ، لأنه لا يمكن أن يترتب على هذه الشكوى أثر ما فى مجرى الحوادث فى العالم ، ولو كانت الشكوى تكفى لتغيير الحال لكان الأمر سهلا ! .

والحقيقة أن أهم عامل له أثر فى حال الأمة هى حالتها الاقتصادية ، ومن الأسف هذه الحال الاقتصادية ليس فى إمكان أحد من الناس أن يحكم عليها ويديرها كيف يشاء .

نعم يوجد فى كل أمة متمدنة عدد من النساء ألجأتهن الضرورة إلى السعى والكد والاشتغال بأعمال الرجال ـ أى مسترجلات إذا شئت ـ وهن النساء اللاتى زهد فيهن الرجال فلم يرغب أحد فى زواجهن ، والأرامل اللاتى توفى أزواجهن ، والمطلقات اللاتى تركهن أزواجهن ، هؤلاء النسوة لم يقترفن ذنبا على الهيئة الاجتماعية ، فما من واحدة منهن إلا وكانت تتمنى أن تجد رفيقا صالحا يحبها وتحبه ويساعدها وتساعده ، ما من واحدة منهن إلا وتبكى فى وحدتها سوء حظها ، وتأسف على ضياع الأمانى التى قضت حياتها فى انتظارها .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكن ما الحيلة اذا كان نظام الوجود يقضى بأن كثيرا من النساء يعشن فى الوحدة والانفراد ويسعين ويعملن لكسب قوتهن وقوت أولادهن وبعض أقاربهن من القواعد والعاجزين عن الكسب .

يقول المعترضون : انهم لا يمنعون النساء الفقيرات من مباشرة أعمال الرجال ، والاختلاط بهم ، كما أنهم لا يمنعون المرأة من التعليم اذا كان لازما لكسب عيشها ، لأن الضرورات تبيح المحظورات ، وقد اتفق جميعهم على هذا الرأى ، حتى حضرة العالم العلامة ـ (هكذا هو لقب نفسه على ظهر كتابه) ـ الذى انتدب عن فقهاء الأزهر للرد على [تحرير المرأة] . فكلهم يرون أن منع المرأة من كشف وجهها ومن الخروج من بيتها ومزاولة أعمال الرجال والاختلاط بهم ومن التعليم الذى يؤهلها إلى هذه الأعمال هو خاص بغير الفقيرات من النساء اللاتى تلجئهن الضرورة إلى السعى لتحصيل أرزاقهن .

ويتبين من هذا أنهم متفقون معنا فى حالة الضرورة ولكنهم يخالفوننا فى غيرها ، فهم يرون أن الإباحة يلزم أن تكون خاصة لهذه الحالة فقط ، وبهؤلاء النسوة ، ونحن نرى أنها يلزم أن تكون عامة شاملة لجميع النساء والأحوال .

ولو شاءوا أن يفهموا ما يقولون وأن يقفوا على ما يفضى إليه رأيهم هذا لوافقونا فى رأينا وحكموا حكمنا ، لأنهم يقولون إن المرأة تفارق الحجاب وتتناول من الأعمال ما يتناوله الرجال اذا مست الحاجة إلى ذلك ، ولا يخفى أن كل نفس حية معرضة لانتياب الحاجات ونزول الضرورات ، والعمل الذى تدفع إليه الضرورة وتحمل عليه الحاجة لا يكفى فى القيام به على الوجه اللازم أن تتوجه المرأة إليه وتدخل فيه بل يلزم قبل الدخول فيه أن تكون نفسها مستعدة تمام الاستعداد لمباشرته والاتيان به على وجه يوصل إلى المرغوب ، وهذا الاستعداد لا يكون إلا بالتربية والعلم والتمرن والممارسة واختبار الناس ، فلو حرمت المرأة من التأهب لملاقاة الضرورات حتى وقعت فيها لم تستطع للخلاص منها سبيلا ، وكان حرمانها من هذا التأهب عبارة عن تسليمها للهلاك .

ويا عجبا ! كيف نتوقع الخيبة للرجل منا اذا كان ناقص التربية ، قليل المعرفة ، عديم الاختبار ، ولا نتوقع تلك الخيبة للمرأة اذا اشتركت معه فى هذه النقائص ؟ ! .

وحوادث الفقر والطلاق وموت الزوج والعزوبة كلها حوادث جارية ، وتقع فى كل آن ، ولما كان الاطلاع على الغيب أمرا غير ميسور للإنسان وجب أن تستعد كل امرأة لهذه الحوادث قبل أن تقع فيها .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لهذا نرى أن من أهم ما يجب على الآباء أن يعدوا بناتهم لاستقبال هذه الحوادث بما يدفع شرها ويقى من ضررها ويمهد لهن سبيل الوصول إلى حظ من السعادة فى هذه الحياة .

نعم ، نرى أنه يجب على كل أب أن يعلم بنته بقدر ما يستطيع ونهاية ما يمكن ، وأن يعتنى بتربيتها كما يعتنى بتربية أولاده الذكور ، فإذا تزوجت بعد ذلك فلا يضرها علمها بل تستفيد منه كثيرًا وتفيد عائلتها وإن لم تتزوج أو تزوجت ثم انفصلت عن زوجها لسبب من الأسباب الكثيرة الوقوع أمكنها أن تستخدم معارفها فى تحصيل معاشها بطريقة ترضيها وتكفل راحتها واستقلالها وكرامتها .

وسواء نظرنا إلى الفوائد المادية التى ينالها صاحب العلم من علمه أو نظرنا إلى اللذة المعنوية التى يذوقها فالتعليم على كل حال مطلوب .

بين يدى الآن كتاب ألفه أحد الكتاب الفرنساويين وهو « بول دروزيه » وسماه [الحياة الأمريكية] قال فيه عند الكلام على تربية البنات ما يأتى :

« رأيت فى أمريكا الصبيان والبنات يذهبون إلى مدرسة واحدة ، ويجلسون على مكتبة واحدة بعضهم بجانب بعض ويسمعون دروسا واحدة ويرتاضون معا ، فإذا أتموا دروسهم استمر هذا الاختلاط حيث ترى البنات فى المعامل والمصانع يشتغلن ويستخدمن فى « اللوكندات » الكبيرة لمسك الدفاتر ويربين الأطفال فى المدارس الابتدائية ويطلبن العلم فى مدارس الطب ، وترى منهن قسيسات يخطبن فى الطرق وأعضاء فى الجمعيات الخيرية ورئيسات فى المجالس البلدية وما أشبه ذلك . إذا أردت أن تعرف ما هو سبب هذه العادات الغريبة ، وما هو المقصود من تربية النساء على هذه الطريقة ، وما هى الواجبات التى يتأهبن إلى أدائها بهذه التربية فعليك أن تتأمل فى هذه المسألة لكى تقف على سرها . إذا فكرت فيها تعلم أنه يوجد تياران متعاكسان يقابلها حالتان للمرأة مختلفتان ، وبيان ذلك أن البنت إن بقيت عزبة تضطر إلى أن تجاهد فى سبيل الحياة كالرجل الذى يناضلها ، فأحسن تربية توافقها حينئذ هى تربية كتربية الرجال ، أما إذا تزوجت فحمل المعاش يكون على زوجها وهى تشتغل بإدارة منزلها وتربية أولادها ، ولكن من ذا الذى يعلم مستقبل البنت وهى فى السنة العاشرة من عمرها ؟ وما الذى يعمله الآباء أمام هذا المستقبل المجهول ؟ رأى الأمريكانيون أن من الفطنة أن يعملوا كأن بناتهم لا يتزوجن ، وأن يربوهن كالذكور من جهة التعليم والاستقلال فى السير ، فالأب الأمريكى يربى بنته على أن تعتمد على نفسها لأنه يجهل مستقبلها فإن صادفت زوجا يريد أن يضع يده فى يدها ويقطع معها طريق الحياة كانت هذه التربية أحسن ما يؤهلها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للقيام بواجباتها العائلية ، وإن لم يوجد أحد يرغب الاقتران بها فقد خلص الأب من اللائمة ، حيث أنه تبصر فى المستقبل وعمل ما يمكن أن يعمل ليعدها للغلبة على ما تلاقيه أمامها من الصعاب ومرارة الحياة » .

ويوجد حرفتان أود أن تتوجه نحوهما تربية البنات عندنا :

الأولى : صناعة تربية الأطفال وتعليمهم . هذه الصنعة هى أحسن ما يمكن أن تتخذها امرأة تريد أن تكسب عيشها ، لأنها صنعة محترمة شريفة ، والمرأة أشد استعدادا لها من الرجل وأدرى منه بطرق استمالتهم ، واكتساب محبتهم . وبلادنا أشد البلاد حاجة إلى نساء يعرفن هذه الصناعة ، فإنه لا يكاد يوجد عندنا امرأة يوثق بها فى تربية الأولاد ، والعائلات المصرية فى احتياج إلى عدد وافر من مربيات الأطفال حتى تستغنى بهن عن المربيات الأجنبيات ، كذلك لا يوجد فى مصر مدارس للبنات تتولى ادارتها والتعليم فيها مصريات ، وهذا نقص كبير فى بلادنا حيث أننا جميعا مضطرون إلى تربية بناتنا فى المدارس الأجنبية .

والحرفة الثانية : هى صناعة الطب . كل رجل يعرف مقدار الصعوبة التى يكابدها عندما عندما تكون إحدى النساء من أقاربه مريضة ويلح عليها أن تعرض نفسها على طبيب من الرجال خصوصا إذا كان المرض من الأمراض الخاصة بالنساء . فإذا وجد عدد من النساء يعرفن صناعة الطب فلاشك أن صناعتهن تروج رواجا عظيما بما يجدنه من الحاجة إليهن فى البيوت المصرية . وهنا نقول أيضا إن فن الطب هو من الفنون التى تلائم استعداد النساء الطبيعى ، ومانشاهد الآن فى المستشفيات العمومية وفى العائلات من الخدمات الجليلة التى تقوم بها النساء هى أعظم برهان على أن المرأة بما جبلت عليه من الرأفة والجلد والاعتناء الشديد صالحة لمثل مايصلح له الرجال من معالجة الأمراض ، ان لم تكن أشد صلاحية لذلك منهم .

كذلك يمكن للمرأة أن تشتغل بجميع الأعمال التى قوامها الترتيب والتنظيم ولاتحتاج إلى قوة العضلات والأعصاب كالتجارة ، فكم من بيوت تجارية ارتفعت بأيدى النساء بعد أن كانت سقطت من أيدى الرجال ، وكذلك يمكن للنساء مزاولة جميع الحرف الأدبية .

إن المرأة المصرية إذا احتاجت اليوم إلى كسب معاشها بنفسها لاتجد عملا تتناول منه ماتقتات به إلا بعض الأعمال الشاقة السافلة كالخدمة فى بعض البيوت أو الجولان فى الطرق لبيع السلع الزهيدة القيمة ، فمنع النساء عن الاشتغال بما يشتغل به الرجال كأنه فى الحقيقة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تخصيص لهن بمثل هذه الأعمال الدنيئة التى لاينال بها إلا القليل التافه وحرمان لهن من الأعمال الشريفة التى تعود على أربابها بالمكاسب الوافرة .

فهذه المنزلة المنحطة هى التى نريد استبدالها بأرفع منها .

يجب أن تربى المرأة على أن تكون لنفسها ـ أولا ـ لا لأن تكون متاعا لرجل ربما يتفق لها أن تقترن به مدة حياتها .

يجب أن تربى المرأة على أن تدخل فى المجتمع الإنسانى وهى ذات كاملة لا مادة يشكلها الرجل كيف ماشاء .

يجب أن تربى المرأة على أن تجد أسباب سعادتها وشقائها فى نفسها لا فى غيرها .

بماذا نقابل رجلا ينصحنا بقوله ربوا أبناءكم ليكونوا أزواجا فقط ولاتعدوهم إلا للزواج ؟ لاريب أنا نقابله بالسخرية والاحتقار ، لأننا نعلم أن الرجل لابد له أولا أن يكون إنسانا مستعدا لأن يلاقى من المشاق والمصاعب مايلاقيه الإنسان ، وأن ينال من السعادة ما يليق بالإنسان أن يناله ، فمتى تعلم وصار قادرا على كسب عيشه وكان متجملا بحسن الأخلاق كان بالطبع زوجا صالحا ، فكيف نقبل نصيحة من يقول لنا : أعدوا بناتكم لأن يكن فراشا فقط ، ولاتعدوهن لغير ذلك من مقاصد الحياة وغاياتها ؟!.

نتج من كل ماتقدم أن للمرأة حقا فى أن تشتغل بالأعمال التى تراها لازمة للقيام بمعاشها ، وأن هذا الحق يستدعى الاعتراف لها بحق آخر وهو أن توجه تربيتها إلى الطرق التى تؤهلها إلى الانتفاع بجميع قواها وملكاتها . وليس معنى ذلك إلزام كل امرأة بالاشتغال بأعمال الرجال وإنما معناه أنه يجب أن تهيأ كل امرأة للعمل عند مساس الحاجة إليه .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الواجب على المرأة لعائلتها

إلى هنا كان كلامنا فى التربية والأعمال التى لابد منها لحفظ وجود المرأة على الوجه اللائق بها . ونريد الآن أن نتكلم على الأعمال والتربية التى تلزم للمرأة لتكون نافعة فى عائلتها .

جميع الناس متفقون على أن قوام العائلة ونظامها فى يد المرأة ، ولكن ليس كل الناس سواء فى فهم هذه القضية . فالجمهور الأعظم من الناس يفهمون أن معنى ذلك هو أن تقوم المرأة بخدمة زوجها وأولادها ان كانت العائلة فقيرة ، أو تدير أعمال الخدمة الذين يؤدون هذه الأعمال بأوامر تصدرها إليهم ومراقبتها لهم ان كانت العائلة غنية .

إلى هذا الحد يقف فكرهم .

هكذا بخسنا المرأة حقها فى جميع الأحوال ، فبعد أن حرمناها حريتها وأفقدناها استعدادها للقيام بضرورات حياتها انتهى بنا الحال إلى أن ضيقنا دائرة أعمالها ، حتى فى العائلة . وهذا أقوى دليل على أن كل مايختص بارتقاء المرأة يرتبط بعضه ببعض . فالمرأة المهذبة الحرة هى التى يمكن أن يكون لها نفوذ عظيم فى عائلتها ، والمرأة الجاهلة المستعبدة لايمكن أن يكون لها من النفوذ فى عائلتها أكثر مما يكون لرئيسة الخدم فى البيت .

ظن المسلمون أن تمتع المرأة بحريتها واشتغالها بما يهتم به الرجال والتوسع فى تربيتها يفضى إلى اهمالها فى القيام بما يجب عليها فى الشئون العائلية ، فوضعوا بينها وبين العالم الخارجى حجابا تاما حتى لايشغلها شىء عن معاشرة زوجها وإدارة منزلها وتربية أولادها . ولكن انظر إلى النتيجة تجد أنها خلاف ماقصدوه ، حيث أن المرأة المصرية لاتعرف كيف تعاشر زوجها ولايمكنها أن تشتغل بإدارة بيتها ولاتصلح لأن تربى أولادها .

ذلك لأن جميع أعمال الإنسان مهما اختلفت وتنوعت هى صادرة عن أصل واحد وهو عمله واحساسه ، فإن كان هذا الأصل راقيا كان أثره فى كل شىء كبيرا نافعا حميدا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وان كان منحطا كان أثره فى كل شىء حقيرا ضارا غير محمود .

فالوظيفة الحقيرة التى تؤديها المرأة المصرية عندنا اليوم فى العائلة هى لمنزلتها من ذلك الأصل المتقدم ذكره ، ولكن عجز نسائنا الآن عن القيام بالأعمال التى ينبغى أن تناط بهن لايحملنا على اليأس من ارتقائهن ولا على الحكم باستحالة بلوغهن إلى الحد الذى يرجى لهن .

فعلى المرأة واجبات غير مايظن الجمهور عندنا ، وأهم هذه الواجبات هى : تربية الأولاد .

إذا أردت أن تعرف مقدار جهل الأمهات عندنا بأبسط مبادئ التربية انظر إلى احصائيات وفيات الأطفال عندنا واحصائيات تلك الوفيات فى مدينة مثل « لوندرة » ، تجد أن عدد الموتى من أطفالنا يزيد عن ضعف عدد الموتى من أطفال مدينة « لوندرة » . وقد اطلعت على إحصائية مصلحة عموم الصحة التى نشرت فى هذا العام فوجدت أن عدد المتوفين بين الأطفال الذين لم يتجاوز عمرهم خمس سنين هو فى مدينة القاهرة ١٤٥ فى الألف ويقابل ذلك فى مدينة « لوندرة » ٦٨ فى الألف .

فإذا كانت صحة أولادنا ومرضهم وحياتهم وموتهم متعلقا بالطريقة التى يتبعها النساء فى تربيتهم أفلا يكون من ضعف العقل وسخافة الرأى أن نكل أولئك الأولاد إلى مايقترحه الجهال ونتركهم إلى خرافات المراضع ونصائح العجائز تتصرف فيهم كيف تشاء ؟! .

إن الأمهات الجاهلات يقتلن فى كل سنة من الأطفال ما يربو على عدد القتلى فى أعظم الحروب ! وكثير منهن يجلبن على أولادهن أمراضا وعاهات مزمنة تصير بها الحياة حملا ثقيلا عليهم طول عمرهم ، وليس لهذا البلاء سبب فى الأغلب سوى جهل الأمهات بقوانين الصحة ، لو كانت أم الطفل تعرف أن كل مايتعلق بتغذية الطفل ومسكنه وملبسه ونومه ولعبه له أثر على جسمه لأمكنها أن تتخذ له وقاية من العلل بقدر معارفها الصحية ، ولو علمت كل أم أن أغلب الأمراض التى تنهك جسم ولدها لاتصيبه من غير سبب ، وأنها المسئولة عن صحته ومرضه لما تساهلت فى وقايته من كل مامن شأنه أن يضر ببدنه ، ولكن كيف تصل إلى معرفة ذلك مع جهلها الذى يخيل لها أن المسببات تقع بلا أسباب أو تحصل بأسباب خارقة للعادة ؟ ! .

لاينبغى هنا أن أشرح بالتفصيل كل مايليق أن يعرفه القراء فى هذا الموضوع . وإنما نقول

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالاجمال : إن التربية الجسمية للولد وحدها تستدعى معارف كثيرة ، أغلبها يتعلق بقوانين الصحة ، وأن معرفة هذه القوانين تحتاج إلى مقدار عظيم من معارف أخرى لابد منه ليتيسر فهمها .

فعلى الأم أن تعرف أفضل الطرق لتغذية الأطفال ، لأن الانتظام فى نمو الجسم يرتبط دائما بانتظام التغذية ، وجودة الانسجة ، وخصوصا النسيج المخى ، تتعلق بجودة التغذية حتى قال بعض علماء الطب : إن الأمم التى تفضل غيرها فى التغذية تفوق سواها فى القوة وتتغلب على غيرها من الأمم !.

وعلى الأم أن تعرف كيف تقى جسم ولدها من أعراض الحر والبرد ، وماهو الماء الذى ينبغى استعماله فى نظافة جسمه من حار أو فاتر أو بارد ، وعليها أن تعرف أن للهواء والشمس أثرا حميدا فى الصحة ، فلا تحرمه من التمتع بهما . وهكذا يقال فى الأشياء الأخرى كالنوم واللعب وما أشبه ذلك .

ثم يجب عليها من جهة أخرى أن تكون على علم تام بنفس الطفل ووظائف قواه العقلية والأدبية ، وإلا كانت أول عامل فى فساد أخلاق ولدها .

انظر إلى ماتعمله امرأة مصرية مع ولدها تجده مما لايصدر عن إنسان عاقل يقدر لعمله نتيجة . مثال ذلك أنها تمنعه من اللعب كى لايشوش عليها ، وهى لاتدرى أنها بمنعها له عن اللعب تقف فى سبيل نموه ، وإذا أرادت أن تؤدبه هددته بمالاتستطيع أو بما لاتريد أن تنفذه أو خوفته بموهومات تثير فى ذهنه خيالات ربما لازمته مدة حياته ، وإذا أرادت أن تكافئه وعدته بوعود لاتفى بها ، فتكون له بذلك قدوة فى الكذب ، وتحدث فى نفسه ضعف الثقة بالقول ، وهى فى أغلب حالاتها تظهر الغضب عليه وتنهره بالصوت الشديد وتزعجه بحركات التهديد ، كأنها تريد أن تثبت له بأقوى الدلائل أنها عاجزة عن ضبط نفسها وسياسة قواها ، وربما كان السبب الذى أثار غضبها لايستحق من ذلك كله شيئا فإذا رأت منه انفعالا مما صدر منها لم تلبث أن تضمه وتقبله وتظهر له غاية الندم على ماصدر منها ، والولد المسكين لايدرى كيف استحق غضبها أولا ثم رضاها ثانيا .

هذه العيوب ليست خاصة فقط بالأمهات بل نجد كثيرا من الآباء عندنا ، لجهلهم بطبيعة الإنسانية ، يستعملون فى تربية أولادهم طرقا لاتقل فى الشناعة والسخافة عما تستعمله النساء . ومن أقبح مايصنعه كثير من الآباء مع أبنائهم أن يشتم ويسب الوالد ولده بألفاظ لايدرى الطفل معناها فيجيبه الولد بمثلها ، فإذا أحسن الاجابة ضحك أبوه مسرورا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واستبشر بنجابة ولده !. وكذلك ترى الواحد يأمر ولده أمرا لا داعى له فيخالفه الطفل فينقض عليه كالوحش فاقد الشعور ويضربه فى أى مكان يصادفه من جسمه ، ولم يكن ذلك إلا لأنه يرى فى عدم طاعة ولده اخلالا بسلطته وامتهانا لعظمته .

ولو كان هذا الأب يعقل مايفعل وعلم أن كل مايعود عليه الطفل فى نشأته يحدث فى نفسه أثرا يكون مبدأ لملكة راسخة فيها لما عوده على مالايحسن أن يراه منه فى كبره ، ولو علم أن المقصود من التربية ليس أن يتعود الطفل على أن يطيع كل أمر يصدر إليه ، وإنما الغرض منها أن يتعود على أن يحكم نفسه لاجتنب الأمر والتهديد والضرب ، فإن هذه الوسائل لا تهيئ الطفل إلى أن يحكم نفسه ، وإنما يتمرن الطفل على أن يحكم نفسه إذا اجتهد أبواه فى اقناعه وتنبيه عقله إلى عواقب أفعاله حتى يتولد فى نفسه اعتقاد ثابت بأن مايصيبه من خير أو شر فهو من كسبه .

أفضل طريق للتربية يؤدى إلى هذه الغاية ـ (أن يحكم الشخص نفسه) ـ هى أن يترك الطفل وميله ، يعمل العمل حسب مايسوقه إليه خاطره ، ولا يتداخل المربى إلا ببيان ما ينتج عن هذه الأعمال بصورة نصيحة وارشاد ، فإذا لج الصبى فى مخالفة النصيحة تركه حتى يقع فى عاقبة عمله ، لكن مع المراقبة الدقيقة كى لايكون ضرر العمل شديدا ، وإنما يسوغ الردع والمنع فى الأحوال النادرة التى يعرض الصبى نفسه فيها للخطر .

بهذه الطريقة يستعد الطفل إلى أن يكون رجلا يعتمد على نفسه فى الوقت الذى لايجد بجانبه أحدا يدفع عنه ويحافظ عليه .

يمكننى أن أقرر بوجه الاجمال حقيقة أود أن يطلع عليها كل أب وأم ، وهى أن جميع العيوب التى تشاهد عند الأطفال ، مثل الكذب والخوف والكسل والحمق ، هى ناشئة من جهل أبويه بقواعد التربية ، وأن من السهل ازالة هذه العيوب بالوسائل الأدبية ، وقد يتوصل لازالتها بالوسائط الطبية .

إذا كانت وقاية الطفل من الأمراض وتطهيره من العيوب مما يحتاج إلى معلومات كثيرة كما ذكرنا ، فالوقوف على غرائز الطفل الطيبة وغرس الصفات الحميدة فى نفسه يحتاج إلى معارف أدق ومعلومات أوفر .

يظن الجمهور الأعظم من الناس أن التربية من الهنات الهينات ، ولكن من يعرفها حق المعرفة يعلم أن لاشىء من الشئون الإنسانية ، مهما عظم ، يحتاج إلى علم أوسع ولانظر أدق ولاعناء أشق مما تحتاج إليه التربية ، أما من جهة العلم فلأنها تحتاج إلى جميع العلوم التى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

توصل إلى معرفة قوانين نمو الإنسان الجسمانى والروحانى ، وأما من جهة المشقة والعناء فلأن تطبيق هذه القوانين على ما يلائم حال الطفل من يوم ولادته إلى بلوغه سن الرشد يحتاج إلى صبر ومثابرة فى العمل ودقة فى الملاحظة والمراقبة فلما يحتاج إليها عمل آخر . لايؤخذ من ذلك أنى أذهب إلى أن كل أم يجب عليها أن تحيط بتلك العلوم الواسعة ، ولكن أقول أن جميع الأمهات يجب عليهن أن يعرفن كلياتها ، وكلما زاد علم الواحدة منهن بأصول تلك العلوم وفروعها زادت قوة استعدادها لتربية أولادها .

يرى القراء أنى أهملت شأن الآباء عند الكلام على التربية ، وليس ذلك من باب السهو بل لأن مدار التربية كلها على الأم ، فالولد ، ذكرا كان أو أنثى ، من وقت ولادته إلى سن المراهقة ، لايعرف قدوة له سوى والدته ، ولا يعاشر غيرها ، ولا يرد على حواسه إلا الصور التى تعرضه لها ، فنفسه صحيفة بيضاء وأمة تنقشها كما تشاء ، ويتم نقش الصحيفة وتكون كتابا مسطورا عندما يبلغ الطفل سن الرابعة عشرة ، كما قال « الفونس دوريه » ، وليس فى إمكان الناشئ بعد ذلك أن يضيف على ما رسا فى نفسه أو ينقص منه إلا شيئا قليلاً لا يترتب عليه تغيير الكتاب .

هذا هو السر فى احترام الغربيين نساءهم وتقديسهم أمهاتهم ، فهم يعلمون أن كل ماهم عليه من الصفات الحسنة والأخلاق الطيبة ، هو من فضل أمهاتهم اللاتى أودعن فيهم بضعة من أرواحهن ، وهى خير بضعة كانت عندهن . ان كان بين الغربيين من يشعر من نفسه بحب الحق والميل إلى جميل الفعال ويقدر شرف النفس قدره ، ويرأف بالفقير ويتألم لأنين المريض ويرحم الحيوان ، ان كان يوجد بينهم من جعل الترتيب والنظام قاعدة عمله والجد والاجتهاد مشتهى نفسه ، ان كان فيهم من يجد فى نفسه احتراما لدينه وتكريما لشأن وطنه وشوقا إلى طلب الكمال فى كل شىء ، فليس ذلك لأنه قرأ فى الكتب أو تعلم فى المدرسة أن هذه الصفات ممدوحة ـ ولو كان الأدب يعلم بالحفظ لكان اصلاح العالم من أسهل الأمور ـ وإنما كان ذلك لأن والدته أرادت أن يكون على هذه الصفات ، وكابدت مالايوصف من المتاعب لطبعها فى نفسه وتثبيتها فى طبعه .

فهى التى كانت تحرص على ألا يقع تحت حواسه صورة قبيحة ، وهى التى كانت تقدم إليه صور الاشياء الجميلة على أشكالها المختلفة ، وهى التى كانت تعوده على العادات النافعة شيئا فشيئا حتى رسخت فيه كما ترسخ جذور النباتات فى الأرض .

هذه الوظيفة التى تقوم بها الأمهات فى تلك البلاد هى أهم وأنفع مايعمله إنسان حى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على وجه الأرض إذ لايوجد شيء أهم ولاأنفع من تهذيب نفوس الأطفال واعدادهم لأن يكونوا رجالا صالحين .

من هذا يتبين أن عمل المرأة فى الهيئة الاجتماعية هو تكوين أخلاق الأمة ، تلك الأخلاق التى أثرها فى الاجتماع ، من حيث ارتقاء الأمم وانحطاطها ، يفوق آثار النظامات والقوانين والديانات .

لهذا لايوجد بين الغربيين من يجهل مقام المرأة فى الوجود الاجتماعى وشأنها فى العائلة . ولا بأس من أن نورد هنا شيئا من كلام بعض فلاسفتهم لنبين للقراء منزلة النساء فى رأيهم .

قال « سيملس » : « للمرأة فى تهذيب النوع الإنسانى أكثر مما لأى أستاذ فيه ، وعندى منزلة الرجل فى النوع منزلة المخ من البدن ومنزلة المرأة منه منزلة القلب » .

وقال « شيلر »[٣٥٠] : « كلما وجد رجل وصل بعمله إلى غايات المجد وجدت بجانبه امرأة محبوبة » .

وقال « روسو »[٣٥١] : « يكون الرجال كما تريد النساء . فإذا أردت أن تجعل الرجال من ذوى الهمة والفضيلة فعلم النساء الهمة والفضيلة » .

وقال « فنلون » : « إن الواجبات التى تطالب بها النساء هى أساس الحياة الإنسانية فالمرأة تدير جميع شئون العائلة ، وبهذا العمل يكون لها أعظم نصيب فى اصلاح الأخلاق أو إفسادها . ليست الأمة صورة تقوم بنفسها كما يتخيل ، وإنما هى مجموع جميع العائلات ، وما من أحد يمكنه أن يهذب العائلة سوى المرأة » .

وقال « لامارتين » : « إذا قرأت المرأة كتابا فكأنما قرأ زوجها وأولادها » .

وأمثال هذه الحكم مما نطق به العلماء والفلاسفة وما ورد فى مؤلفاتهم لبيان ماللمرأة من الأثر فى اصلاح أخلاق الأمم بلغ من الكثرة حدا بحيث لاتمكن الاحاطة به .

ومن الغريب أن الكثير من شبابنا الذين لهم إلمام باللغة الأجنبية والذين لابد أن يكونوا

---

(٣٥٠) فريدريخ فون شلير (١٧٥٩ ـ ١٨٠٥ م) شاعر وكاتب مسرحى ومؤرخ وفيلسوف المانى . لحن له بيتهوفن بعض اناشيده .

(٣٥١) جان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨ م) فيلسوف فرنسى ، تعتبر آراؤه من الأفكار التى مهدت لقيام الثورة الفرنسية ، وهو صاحب كتاب [العقد الاجتماعى] . كما اشتهر باعترافاته .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قد اطلعوا على بعض هذه المؤلفات يرون انى بالغت فى اعلاء شأن المرأة وتعظيم وظيفتها بل كان من أمر بعضهم أن احتقر رأينا وعده من سقط المتاع الذى لايليق بأن ينظر فيه . وكان العالم الأزهرى الذى رد على كتاب [تحرير المرأة] قد عبر عن أفكارهم عند قوله :

« ما سمعنا فى تاريخ من التواريخ ولا فى سفر من الأسفار ولا فى خبر من الأخبار أن أمة من الأمم أو دولة من الدول تقدمت بنسائها وارتفع شأنها بإناثها ، وهذه الدول الأوروباوية قد ارتفعت فى هذه الأيام واشتهرت بالعلوم والمعارف والحرف والصنائع واختراع الأمور العظيمة التى عم نفعها ، فأى شىء من هذه العلوم والمعارف وأى أمر من مخترعات الحرف والصنائع اشتهرت به امرأة من النساء ؟ » .

والذى يقرأ هذه السطور يحق له أن يظن أن هذا العالم الأزهرى وأمثاله لم يطلعوا على تاريخ من التواريخ ولا سفر من الأسفار ولا خبر من الأخبار !.

فالنساء اللاتى خلد التاريخ ذكرهن لشهرتهن بالعلوم والمعارف ، أو بالأعمال العظيمة لسن بذى العدد القليل ، وتوجد مؤلفات ضخمة تشتمل على تراجم حياتهن ، وليس فى امكاننا أن نأتى هنا على ذكر أعمال بعض من اشتهر من النساء فى التاريخ ، وربما تسمح لنا الفرصة بوضع كتاب نخصصه لذلك ، إنما يمكننا أن نؤكد هنا أنه لايوجد علم من العلوم ولا فن من الفنون إلا وقد برهنت المرأة فيه على أنها مستعدة إلى أن تصل إلى أعلى مراتب الكمال الإنسانى .

وإنى استلفت العالم الأزهرى خصوصا إلى سلف أمته الصالح ليعلم أن تاريخ دينه لم يخل من ذكر النساء اللاتى كان لهن أجمل الأثر فيه .

على أن الأمر لايحتاج تحقيقه إلى التاريخ ، فقد وجد فى القرن الذى نحن فيه كثير من النساء اللاتى ارتفع شأنهن وذاع ذكرهن فى جميع الممالك المتمدنة .

هذه « ماريا متشل »[٣٥٢] اكتشفت نجما ذا ذنب سمى باسمها ، وعينت مديرة « لرصد خانة » فى أمريكا ، ومعلمة لعلم الفلك ، ولها مؤلفات كثيرة فى هذا العلم .

و « كارولين هرشل »[٣٥٣] اكتشفت سبعة نجوم ، فمنحها مجمع علمى « لوندرة » المدالية الذهبية .

---

(٣٥٢) ماريا ميتشل (١٨١٨ ـ ١٨٨٩ م) .

(٣٥٣) كارولين لكرشيا هرشل (١٧٥٠ ـ ١٨٤٨ م) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

و « تريز دويافير » لها مؤلفات عظيمة فى الجغرافيا وفى علم طبقات الأرض ، وكانت عضوا فى المجمع العلمى بمدينة « منخ » .

و « صوفى جرمين »[٣٥٤] لها اختراعات جليلة فى العلوم الطبيعية .

وكل أهل العلم يعلمون أن « المركيزة دوشاتليه » هى التى نشرت مذهب « نوتون »[٣٥٥] فى فرنسا ، و « كلمنس رويه » هى التى نشرت مذهب « داروين » ، و « مدام استيل » هى أول من عرف ألمانيا لأوروبا ، وكذلك « مدام تارنوسكى » هى التى نشرت مذهب « لمبروزو » فى البلاد الروسية .

أما عدد الفلاسفة والادباء من النساء اللاتى نشأن فى هذا القرن والقرن الذى سبق لا يمكن حصره فى مثل هذا الكتاب ، ولكنى لا أرى بدا من ذكر اثنتين من بينهن لم يسبقهن رجل فى فن الكتابة وهما « مدام لافايت »[٣٥٦] و « جورج سند » .

على أن الارتباط الذى ادعيناه بين تقدم الأمم وارتقاء حال النساء لم نقصد به أن المرأة تفيد الأمة مباشرة باختراعاتها العلمية ومذاهبها الفلسفية ، وإنما نعنى به بخاصة ما لها من العمل فى اصلاح العائلة ثم الأمة على الوجه الذى بيناه .

وبعبارة أخرى نقول : إن ظهور رجل عالم أو حكيم فاضل فى أمة يعد من الحوادث التى يشترك فى إحداثها سببان :

الأول : استعداده بالوراثة لما ظهر فيه .

والثانى : تربيته التى ساعدت على نمو هذا الاستعداد فيه . بحيث لو فقد أحد هذين السببين امتنع احتمال وجود هذا الرجل العالم أو الفاضل .

من هذا يتبين أن شخصية الإنسان الأدبية تتكون من عاملين : عامل طبيعى ، وعامل صناعى ، وليس فى استطاعتنا أن نؤثر فى الأول ، ولنا على الثانى سلطة واسعة ، حيث أنه يمكننا بالتربية الأولى أن ننمى غريزة الطفل ، ان كانت غريزته صالحة ، ونكملها ونزيدها حسنا ، ويمكننا أن نضعف من أثرها ان كانت بضد ذلك . نعم ان لهذه السلطة الثانية حدا

---

(٣٥٤) (١٧٧٦ ـ ١٨٣١ م) وهى فرنسية .

(٣٥٥) اسحق نيوتن (١٦٤٣ ـ ١٧٢٧ م) انجليزى ، اشتهر باكتشاف قانون الجاذبية . وهو أعظم علماء عصره .

(٣٥٦) مارى لافايت (١٦٣٤ ـ ١٦٩٢ م) روائية فرنسية ، صاحبة رواية [اميرة كليف] .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تنتهى إليه ، ولكن سعة دائرتها تمكننا من الانتفاع بها انتفاعا عظيما إذا عرفنا كيف نتصرف فيها واهتدينا إلى طرق التربية الصحيحة .

فهذه التربية الأولى ـ وزمامها فى يد المرأة ـ هى التى اكسبتها ذلك المقام الرفيع الذى لايعلوه مقام فى الهيئة الاجتماعية .

وليس تأثير المرأة فى العائلة قاصرا على تربية الأطفال ، بل المشاهد بالعيان أن المرأة تؤثر على جميع من يعيش حولها من الرجال . فكم من امرأة سهلت على زوجها وسائل النجاح فى أعماله ، وأعدت له أسباب الراحة والاطمئنان ليتفرغ لاشغاله ، وكم من امرأة شاركت زوجها أو أخاها أو والدها فى متاعبه ، وكم من امرأة طيبت قلب الرجل وقوت عزيمته فى حالة اليأس والقنوط ، وكم رجل طلب المجد ومعالى الأمور طمعا فى ارضاء محبوبته فبلغ الغاية مما طلب .

وضع « استوارت ميل » فى صدر كتابه المسمى (الحرية) الذى طبعه بعد وفاة زوجته العبارة الآتية .

« إنى أهدى هذا الكتاب إلى الروح التى ألهمتنى أحسن ماوضعته فيه من الأفكار ، إلى صديقتى وزوجتى التى كان غرامها بالحق والعدل أعظم ناصر لى ، والتى كان استحسانها من أكبر المكافآت التى أرجو نيلها على عملى . كان لها فى جميع ماكتبته إلى الآن ، ولها فى هذا الكتاب ، حصة من العمل لاتنقص عن حصتى فيه . وأكبر أسفى أن هذا الكتاب طبع بالحالة التى هو عليها الآن قبل أن تعيد النظر فيه ، ولو كان فى استطاعة قلمى أن يعبر عن نصف مادفن معها من الأفكار العالية والوجدان السامى لانتفع العالم به أكثر مما ينتفع بجميع ماأكتبه صادرا عن فكرى ووجدانى بدون مشورة عقلها الفريد ! » .

وكانت زوجة « باستور »[٣٥٧] الشهير مشاركة له فى جميع مباحثه العلمية وبنت « لمبروزو » تشتغل إلى الآن مع والدها ، ومن هذا القبيل أن « مارك » الشهير فقد بصره فلم يجد له معينا على معيشته إلا بنته ، فكانت تلقى دروسا بالاجرة وتمد والدها بما تكسب من دروسها ، ثم انها كانت تحثه على اتمام بحثه العلمى ، وتكتب مايمليه عليها ، حتى صار بمعونتها من أشهر علماء التاريخ الطبيعى .

---

(٣٥٧) لويس باستير (١٨٢٢ ـ ١٨٩٥ م) الكيماوى الفرنسى صاحب الابحاث التى نشأت عنها « البسترة » ، والتى أدت لزوال عقيدة « التولد الذاتى » .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذه الأمثلة ، وغيرها مما يطول شرحه ، تدلنا على أن المرأة المهذبة يمكنها ، فضلا عن تربية أولادها ، أن تعمل كثيرا من الأعمال لمصلحة الرجال وسعادتهم . وأى مصلحة للرجل أعظم من أن يعيش وبجانبه رفيقة تلازمه فى الليل والنهار ، فى الاقامة والسفر ، فى الصحة والمرض ، فى السراء والضراء ، رفيقة ذات عقل وأدب ، عارفة بحاجات الحياة كلها ، تهتم بكل شىء يمس بمصلحة زوجها ومستقبل أولادها ، تدبر ثروته ، وتحافظ على صحته وتدافع عن شرفه ، وتروج أعماله ، وتذكره بواجباته ، وتنبهه إلى حقوقه ، وتعرف أنها باجتهادها تجد فى منفعتها كما تجدّ فى منفعة زوجها وأولادها ؟.

وهل يسعد رجل لايكون بجانبه امرأة يهبها حياته ، وتشخص الكمال بصداقتها أمام عينيه فيعجب بها ، ويتمنى رضاها ، ويتوسل إليها بفاضل الأعمال ، ويدنو منها بعقائل الصفات ومكارم الأخلاق ، صديقة تزين بيته ، وتبهج قلبه ، وتملأ أوقاته ، وتذيب همومه ؟.

هذه الحياة التى لايشعر الرجال عندنا بشىء منها هى من أعظم الينابيع للأعمال العظيمة . وأقول ، ولا أتردد فى ما أقول : إذا لم تبلغ رقة الاحساس عندنا إلى حد يرتبط الرجال فيه مع النساء على نحو ما ذكرنا ، واستمر الرجال على اهمال النساء وتركهن فى هذه الحالة الساقطة التى يتألم الكل من آثارها وهم لايشعرون ، ولم يبادروا باعداد المرأة بالتربية إلى أن تكون رفيقة مساوية للرجل ، وعشيرة عارفة بإدارة بيتها ، وصديقة تفدى زوجها بأعز مالديها ، وأما محيطة بما يجب عليها لأولادها ، عارفة بطرق تربيتهم ، فكل مافعلناه إلى الآن وكل ما نفعله فى المستقبل لترقية شأن أمتنا يضيع هباء منثورا ! .

هذا هو الحق الذى انتهينا إليه عند بحثنا عن أسباب تأخر الأمم الشرقية عموما والإسلامية خصوصا .

هذا الرأى الذى عرضناه على القراء أولا نعرضه عليهم الآن مرة ثانية . وكل مانرجوه منهم هو أن (لايضربوا به عرض الحائط) ، كما أشار عليهم كثير من أصحاب الأفكار والكتاب الذين طعن أغلبهم فى كتاب [تحرير المرأة] قبل أن يقرأه .

لاخلاف فى أن الأمم الإسلامية فى حالة ضعف شديد تستدعى المبادرة إلى علاجها فيتعين علينا أن نشخص هذا الداء بمعرفة أسبابه أولا ، ثم نبحث عن دوائه ، كما يفعل كل طبيب يهتم بعلاج مريض . فما هى أسباب الداء ؟.

أسبابه تنحصر إما فى الاقليم ، أو فى الدين ، أو فى العائلة .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما الاقليم فلا يصح أن يكون سبب الداء ، لأنه من المعلوم أن الأمة المصرية من أقدم الأمم ، ويعترف لها المؤرخون بالسبق فى ابتكار كثير من العلوم والصنائع التى انتقلت منها إلى اليونان ثم إلى الرومان ثم إلى العرب ثم إلى أوروبا . وظهر فيها أول دين كبير فى العالم ، وتمتعت مدة قرون بمدنية مشهورة لاتزال آثارها إلى الآن ، وستبقى خالدة فى مالايزال وحكمت نفسها ودبرت أمورها مدة أجيال ، بل أتى عليها زمن تغلبت فيه على ماجاورها وبعد عنها من الأمم العظيمة وقهرتها وأخضعتها لحكمها ، ثم بعد فقد استقلالها حافظت على وجودها وهيئتها رغما عما طرأ عليها من التقلبات والمظالم والمصائب التى توالت عليها . وهذا يدل على أنها وهبت فى طبيعتها حياة قوية ، وأنها مستعدة للمقاومة فى المزاحمة مع الأمم الأخرى ، فإذا كان الاقليم لم يعق الأمة المصرية عن اتيانها بأعظم الأعمال ، ولا عن تأسيس الشرائع وابتكار العلوم والفنون ، فلماذا يصير مانعا لها من الترقى فى هذه الأيام التى قد تلطفت فيها بلا ريب درجة حرارة الاقليم ؟.

على أنه لم يثبت بأدلة صحيحة يسندها العلم أن الحرارة تؤثر فى الجسم والعقل تأثيرا سيئا وغاية ما ينشأ عن اختلاف الاقليم تفاوت فى الأمزجة والأخلاق بين الأمم ، فمن المشاهد أن سكان الشرق يمتازون بالذكاء وسرعة الفهم وقوة الذاكرة ، وهذه الصفات النفيسة تعوضهم ماقد ينقصهم من الجلد والمثابرة فى العمل .

وفى الشرق أقاليم باردة وسكانها ليسو أقل انحطاطا فى المدنية من سكان الأقاليم الحارة .

وأما نسبة تأخر المسلمين فى المدنية إلى الدين الإسلامى فهو خطأ محض . من ذا الذى يقول إن الدين الإسلامى ، الذى يخاطب العقل ويحث على العمل والسعى ، يكون هو المانع من ترقى المسلمين ؟ وقد برهن المسلمون أن دينهم عامل من أقوى العوامل للترقى فى المدنية ، ولا يجوز بعد سطوع هذا البرهان التاريخى أن يرتاب أحد فى هذه المسألة . نعم ان الدين الإسلامى الصحيح قد تحول اليوم عن أصوله ، واستتر تحت حجب من البدع ، ووقف نموه ، وانقطع ارتقاؤه من عدة قرون ، وظهر لهذا الانحطاط الدينى أثر عظيم فى أحوال المسلمين ، ولكن هذا الانحطاط الذى ينسب إليه بعض الكتاب الغربيين تأخر المسلمين فى المدنية يحتاج نفسه إلى سبب يُردّ هو إليه ، فهو سبب ثانوى لا أولى .

وعلى هذا فليس مانراه فى أحوال المسلمين ناشئا عن السببين المذكورين ، فإن أحدهما لا تأثير له بالمرة ، والثانى يعد من الأسباب الثانوية ، بقى عندنا السبب الثالث . فهو الذى ينبغى أن تنسب إليه هذه الحال التى نشكو منها ، فانحطاط المسلم كانحطاط الهندى والصينى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجميع سكان الشرق ، ما عدا اليابان ، ناشئ من حالة العائلة فى هذه الجمعيات .

وذلك أن العائلة هى أول شىء يقع تحت حواس الإنسان فى أول نشأته ، وهى الشىء الثابت المستمر الذى يراه دائما ، فإذا رأى الطفل فيها مثال الترتيب والعمل ورفعة النفس ورقة العواطف تعلقت نفسه بهذه الخلال ، وبهذا التعلق يخطو الخطوة الأولى فى سبيل ارتقائه حتى إذا صار رجلا وجد من حاله الشخصى مايساعده على هذا الارتقاء .

فالارتقاء حينئذ له دوران :

الأول : دور اعدادى يقطعه الإنسان فى مدة طفولته وصباه ، وفيه ترتسم فى نفس الطفل الترتيب والتنظيم ، وينشأ فيه الميل إلى الفعال الجميلة ، وتتوجه نفسه إلى حب الكمال وتتعود فيه آلات الجسم على النشاط والحركة .

والثانى : دور عملى يقطعه الإنسان فى سن الرجولية إلى آخر العمر ، وفيه تخرج هذه الصفات من حالة الكمون إلى الظهور فى العمل .

فإن أهمل الاعداد فى الدور الأول استحال صعود الشخص فى درجات الارتقاء . ومهما حفظ بعد ذلك من العلوم فى المدارس ، ومهما كانت التعاليم الادبية أو الدينية التى تلقى عليه ، فهو يعيش كالطائر الذى قص جناحه ، كلما هم أن يطير سقط ، ومتى تحقق بالتجربة من عجزه استسلم إلى حظه ورضى به وانتهى الحال إلى أن يفضله على كل شئ سواه .

ذلك لأن التعليم ، سواء كان دينيا أو علميا ، لايمكن أن يكون له أثر نافع إلا إذا وجد من النفس عونا على النجاح ، كما أن البذرة مهما كانت جيدة لاتنبت إلا فى الأرض الصالحة لنموها .

يقضى أولادنا الآن أوقاتهم فى تعلم القراءة والكتابة واللغات الأجنبية ومطالعة العلوم سنين ، ثم ينتقلون إلى علوم أخرى أعلى وأرفع من تلك ، فإذا انتهت مدة الدراسة ودخلوا فى ميدان الحياة العمومية انتظرنا منهم أن يكونوا بيننا رجالا ذوى احساس شريف وعواطف كريمة وأخلاق حسنة وهمم عالية ، رجالا يشعرون ويعملون ، ورجونا منهم أن نجنى ثمار هذا التعليم الذى بذل فى سبيله النفيس من الوقت والمال . ولكن ، واأسفاه ! نرى آمالنا فيهم خائبة نرى لهؤلاء الشبان المتعلمين قلوبا يابسة وهما صغيرة وعزائم ضئيلة ، أما العواطف فهى بالتقريب ، فيهم معدومة ، فلا يروق لأعينهم منظر جميل ، كما لاينفرهم مشهد قبيح ، ولا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يعطفهم حنو ، ولا تبكيهم مرحمة ، ولايحترمون كبيرا ، ولايستصغرون صغيرا ، ولا تحركهم منفعة إلى عمل مهما عظم نفعه .

وليس لذلك من سبب سوى أن التربية لم تتناول وجدانهم فى أول السن ، هذا الوجدان الذى هو المحرك الوحيد للعمل لايظهر ولا يقويه ولاينميه إلا التربية البيتية ، ولا عامل لها فى البيت إلا الأم ، فهى التى تلقن ولدها احترام الدين والوطن والفضائل وتغرس فى نفسه الأخلاق الجميلة وتنفث فيها روح العواطف الكريمة ، وأشد من هذا كله أثرا فى نفسه ظهورها فى عينيه متحلية بهذه الصفات ، فيقلدها من غير فكر ، ثم يعتاد على ذلك شيئا فشيئا حتى تصير هذه الصفات حاجات لنفسه لايمكن أن تنسلخ عنها .

ولايكون لنفسه شيء من ذلك إذا قضى زمن صباه ولم ترد عليه صورة من هذه الصور ولم ينطبع فى روحه مثال من هذه الأمثلة ، فلو أدركها بعد ذلك بالتعليم كانت محفوظات فى ذهنه لاينفذ منها شيء إلى باطن نفسه ، فلا يحدث له منها شعور صحيح يكون داعية للعمل وحاثا عليه .

من هذا ترى شعراءنا ينمقون القوافى فى وصف مايكابد العاشق من مرارة العشق وآلامه ، وهم لايعشقون ، وخطباءنا يلقون على أسماع غيرهم أحسن المقالات فى حب الوطن والحث على القيام بالواجبات الوطنية ، ولا يأتى قائل منهم بشيء يبرهن به على أنه شاعر بما يقول وترى أن أهل الدين الذين وقفوا حياتهم على خدمته أقل الناس شعورا بالاحساس الدينى الحقيق ، وترانا جميعا منصرفين عن كل شيء ونحن نطلب كل شيء ! .

بينما كنت أكتب هذه السطور اطلعت فى جريدة [المؤيد] على رسالة لحضرة الفاضل إبراهيم بك الهلباوى [٣٥٨] ، حررها وهو على ظهر المركب التى سافر فيها فى هذا العام إلى أوروبا ، وقد أعجبنى من هذه الرسالة المفيدة أمر أخصه بالذكر وهو توخى كاتبها الصدق فى القول ، والذى دعانى للكلام عليها هنا هو ان حضرة إبراهيم بك الهلباوى شرح لنا ما كان يجده من نفسه ويتردد فى صدره عندما مر على جزيرة « كريد » فقال :

« هذه أول مرة انكشفت فيها لعينى هذه الجزيرة بعد انسلاخها من حكم الدولة وإعطاء أوروبا اياها هدية لثانى أنجال ملك اليونان ! وقد حاولت حال المرور بها أن أتذكر

---

(٣٥٨) من أشهر المحامين والخطباء بمصر فى عصره . تولى الدفاع عن وجهة نظر الاستعمار الانجليزى ضد الفلاحين المصريين فى محاكمة دنشواى ؟! توفى سنة ١٩٤٠ م .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بحسرة وجزع الحوادث التى سبقت أو اقترنت أو نتجت عن هذا التغيير ، من قتل وسفك دماء مسلمى هذه الجزيرة ومانالهم من الذل والمظالم ، ثم مصادرة من بقى منهم فى أموالهم وثمرات أتعابهم ، كمسلم حقيق بألم بمصائب أخيه ، فلم تجد نفسى فى جسمى دما يتأثر ولابقلبى محلا للأسف أو الرحمة » .

« ولما تساءلت مع وجدانى عن سبب هذا الجمود وعدم المبالاة بما دهمنا من النوائب والمصائب ، قلت : لعل ذلك لكثرة مالحقنا منها حتى تدمم[٣٥٩] القلب وأوشك ان يقال عنه : « تكسرت النصال على النصال » .

« وقد بدا لنفسى جواب آخر على عدم الاكتراث بما أصاب مسلمى كريد ، لم يبعد عن اختلاج النفس بالأسف على مصائبهم فقط بل أوشك أن يخجلنى ، حيث مر بخاطرى حسبان ذلك المصاب ، ذلك أنى قبل المجىء إلى الإسماعيلية كان آخر سفرى على خط السويس من جهة القاهرة محطة الزقازيق ، ثم اتجه القطار بنا نحو الاسماعيلية . وهى المرة الأولى فى حياتى التى مررت بها على « التل الكبير » و « القصاصين » و « المحسمة » و « نفيشة » ، هذه المواقع التى اتخذت خطوطا للدفاع ضد الجيش الانكليزى فى سنة ١٨٨٢ والشأن ان المرور على مثل هذه البقاع للمرة الأولى يحرك لوعة الأسف وذكرى ضياع مجد البلاد واستقلالها ، ومع ذلك لم أجد ألما أو اضطرابا ؟» .

هذا ماكتبه أحد رجال المصريين المشهورين بالذكاء ومحبة الوطن . وإذا أردنا أن نصدق فى القول مثله يجب علينا أن نعترف اننا إذا مررنا نحن ايضا على هذه البقاع وشاهدناها فلا تتحرك نفوسنا أكثر مما تحركت نفسه ، ولاتشعر بأكثر مماشعر .

ومن البديهى ان هذا الجمود ، كما سماه صاحب هذه المقالة ، ليس منشؤه ان إبراهيم بك الهلباوى رجل جاهل أو لايعرف ان محبة الوطن واجبة ، وليس سبب هذا الجمود ماتوهمه حضرته من ان قلوبنا صلبت لكثرة مالحقنا من المصائب ، لأن توالى المصائب لايذهب بالشعور من النفس ولايضعفه بل يزيد الشعور ويقويه ويعلم الصبر ويشد العزائم .

وإنما السبب الحقيق لفقد الشعور إلى هذا الحد هو اهمال تربية العواطف عندنا فى زمن الطفولية ، وتبع ذلك أن أعصابنا أصبحت لاتتأثر إلا بالاحساسات المادية التى تقع عليها مباشرة ، وصارت غير قابلة للتأثر بالمعانى النفسية .

---

(٣٥٩) أى طلى وغطى بالطلاء .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رأيت مدة وجودى فى فرنسا طفلا عمره عشر سنين كان يتفرج بجانبى على فرقة من العساكر الفرنساوية وهى عائدة من حرب التونكين . فلما مر أمامه حامل العلم وقف هذا الغلام باحترام ورفع قبعته وحيا العلم وصار يتابعه بنظراته حتى غاب عنه . فأحسست أن الوطن تجسم لهذا الطفل فى العلم الذى مر أمامه وأثار فيه جميع الاحساسات التى بعثها فيه ماتربى عليه من حبه حتى خلته رجلا كاملا . أما الرجال والنساء الذين كانوا يشهدون هذا المنظر فقد وصلت بهم قوة الشعور إلى أنهم صاروا يعملون أعمال الأطفال ، فكان الكثير من النساء يقبل العساكر ودموع الفرح تسيل على خدودهن ، وأغلب الرجال كانوا يرقصون ويغنون ويلقون بقبعاتهم فى الطريق .

بمثل هذه المناظر وبما يدور فيها من الأحاديث أمام الأطفال ينغرس الشعور الوطنى فى نفوسهم ويزهر ويثمر . وهكذا الحال فى تربية الفضائل الأخرى .

فانحطاط المصرى إنما هو ناشئ من حرمانه من هذه التربية الأولى ينمو الطفل بيننا كما ينمو النبات ، ولايهتم أحد من أهله إلا بإعطائه التغذية والملبس ، فهم يعتنون به كما يعتنى أى إنسان بحيوان يحبه ، فكل بناء يقام بعد ذلك على هذا الاساس هو بناء على الرمل لايلبث أن ينهار مهدوما .

وبالجملة ، ان التربية تنقسم إلى قسمين :

تربية العقل : وهى التى توجه مدارك الإنسان إلى اكتشاف حقائق العالم .

وتربية الروح : وهى التى توجه ارادته إلى الخير وتميل بإحساسه إلى الجميل . وكلتاهما لازمتان لسعادة الإنسان .

أما التربية العقلية فمنبعها المكاتب والمدارس ، وأما التربية الروحية فلا تكتسب إلا فى العائلة ، ولايمكن اكتسابها فى العائلة إلا إذا كانت الأم فى أول من يديرها ولايمكن أن تديرها الأم إلا إذا كانت على جانب عظيم من الرقى العقلى والأدبى ، لهذا قلنا : إن المصريين إذا أرادوا أن يرتقوا وجب عليهم ان يعملوا لارتقاء شأن المرأة المصرية .

ومما يوجب الأسف ان المصريين لم يفهموا إلى الآن هذه الحقيقة تمام الفهم ، فى حين ان رجالا من مسلمى الهند قد صعدوا بفكرهم وتوصلوا بأبحاثهم إلى ادراك شأن المرأة فى الهيئة الاجتماعية وأحاطوا بما لوظيفتها من الأهمية ، وقد قام رجلان من أعاظمهم أحدهما الأمير على القاضى والثانى عناية حسين .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فنشر الأول مقالة جليلة موضوعها [النساء فى الإسلام] ترجمت فى مجلة [المقتطف] فى عدديها الصادرين فى شهرى يونيه ويولية سنة ١٨٩٩ ونقتطف منها من غير ترتيب مايأتى :

« مامن مقياس يقاس به ارتقاء الأمم مثل منزلة المرأة فيها ، فإذا أراد مسلمو الهند أن يرتقوا وجب عليهم أن يعيدوا للمرأة المنزلة الرفيعة التى كانت فيها فى صدر الإسلام » .

« وكفى من تاريخ روسيا الحديث دليلا على ارتباط تقدم الأمم المادى والمعنوى بمقام المرأة فيها ، فقد بقيت نساء الاشراف فى روسيا متحجبات إلى بداية القرن الثامن عشر ، يعشن فى بيوت ، بل فى سجون ، لايدخلها النور ولا الهواء ، اسدلت الاستار على كواها ، وأحكمت الأقفال على أبوابها ، ووضعت مفاتيحها فى جيوب الآباء والأزواج ، وإذا أريد نقلهن من مكان إلى آخر نقلن فى محفات متحجبات متبرقعات كما تنقل النساء فى بلاد الهند ، فلما فكت قيود النساء ، وجارين الرجال فى العلم والتهذيب ، وصرن من دعائم الهيئة الاجتماعية ، صارت بلاد الروس من أعظم ممالك الأرض » .

« كانت شمس المعارف فى المشرق فانتقلت إلى المغرب ، فمنه يجب ان نستمد النور وكل من يسعى فى اعلاء شأن نسائنا له عندنا شكر ، ولكن لايغير الله مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

« ولابد أن يسأل سائل : هل كان نساء الخلفاء وغيرهن من النساء يبرزن ملتفات بالاكفان ، كالنساء الشرقيات فى مدن الشرق الآن ؟! ويظهر لى أنهن لم يكن يلبسن غير النقاب يسترن به وجوههن كما تستر نساء الآستانة الآن باليشمك فيخفى غضون الشيخوخة ويظهر جمال الصبا ، أما البرقع الشامل للوشاح والنقاب والخمار فلم يشع إلا فى أواخر عهد السلاجقة ، وأما الاحتجاب بالبردة على ماهو شائع الآن عند مسلمى الهند وغيرها من البلدان فلم يكن معروفا فى تلك العصور ، والنساء من الطبقات العليا كن يظهرن أمام الرجال غير متبرقعات » .

« واستخدم العرب الخصيان فى عهد معاوية ، آخذين ذلك من الروم ، واقتبسوا نظام الحريم فى عهد الوليد الأموى الثانى ، وامر المتوكل ـ نيرون العرب ـ بفصل النساء عن الرجال فى الولائم والحفلات العمومية ، ولكن بقيت النساء يختلطن بالرجال إلى أواخر المائة السادسة للهجرة وكن يقابلن الزوار ويعقدن مجالس الأنس ويمضين إلى الحرب لابسات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحديد ويساعدن إخوتهن وأزواجهن فى الدفاع عن القلاع والمعاقل » .

« ولما اضمحل شأن الخلفاء فى أواسط المائة السابعة ومزق التتار شمل الدول العربية قام العلماء يتجادلون فى هل الأليق بالنساء أن يظهرن أيديهن أو أقدامهن ! » .

وألقى الثانى خطبة فى جمعية الآداب الإسلامية بمدراس فى الهند ترجمت فى جريدة [المؤيد] الصادرة فى ١٤ يوليو سنة ١٩٠٠ نقتطف منها ميأتى :

« ولدينا نقطة أخرى عظيمة الأهمية لا أرى مندوحة من الكلام فيها والبحث فيما يتعلق بشأنها ، إذ لاترتقى أمة ولاتسمو مملكة إلا بواسطتها ، وهذه النقطة هى تربية البنات . إذا لم تتحققوا أيها السادة أن النساء والرجال توأمان عاملان فى الهيئة الاجتماعية ، أنهم إما أن يقوموا معا واما أن يسقطوا معا ، فلا سبيل إلى الرقى ولاوسيلة إلى التقدم والنجاح ، ولانقدر ان نقول إن أساس أمتنا موطد الدعائم ثابت البنيان ، تذكروا ان الطفل هو والد الرجل ، وأنه متى كانت الامهات جاهلات لايقدرن على بث أنوار المبادئ الأدبية والتهذيبية فى نفوس أولادهن ولايرقين عقولهن ولايقوين أبدانهن بالوسائل الصحية فإننا نبقى إلى الأبد فى آخر صف من صفوف الأمم » .

فانظر إلى مايكتبه رجال من أهل الفقه والعلم فى الهند ، وإلى ماكتبه فقهاؤنا وكتابنا حيث قالوا : إن المرأة لاشأن لها فى ارتقاء الأمم ، وإنها لايجب أن تتعلم إلا مايلزمها من فرائض دينها للعبادة ، ولايسوغ لها ان تتعلم القراءة والكتابة ، وقاموا جميعهم ينصحون الناس بتشديد الحجاب عليها ويحذرونهم من السير فى طريق الكمال الذى أشرنا إليه بحجة انه تقليد للغربيين فى عاداتهم ، ويوهمون ان الغربيين أنفسهم متألمون من حال نسائهم !.

وقد بينا بالتفصيل الأسباب الاجتماعية التى يلزم لأجلها العناية بشأن المرأة واخراجها من الحجر الذى سقطت تحته أزمانا طويلة ، وبرهنا على أنها هى صاحبة السلطة على الأخلاق والقابضة على زمام الآداب ، وأنها هى التى تسوق الأمم فى طريق الخير والشر ، وانها لايمكنها ان تحسن القيام بهذه الوظيفة الاجتماعية إلا إذا كانت على جانب عظيم من العقل والعلم والأدب .

نقول هذا مع اطلاعنا على ماكتب فى شأن المرأة الغربية ، ومع علمنا بما هى عليه ولانرى مانعا من السير فى تلك الطريق التى سبقتنا فيها الأمم الغربية ، لأننا نشاهد ان الغربيين يظهر تقدمهم فى المدنية يوما فيوما ، ونرى أن البلاد التى يتمتع فيها النساء بحريتهن وبجميع حقوقهن هى التى تسير كالدليل أمام الأخرى وتهديها فى سبيل الكمال فى المدنية ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن جهة أخرى نرى أن جميع الأمم التى حطّت من شأن نسائها على غاية من الضعف ، وهى فى ذلك على درجة واحدة أو نسب متقاربة ، لايظهر التفاوت بينها مع اختلاف الأقاليم وتباين الشعوب والأديان .

هذا هو المشاهد الواقع تحت انظارنا ، ولايمكن لعاقل أن يجادل فيه .

أما مازعموه من أن الأوروبيين يتألمون من حال نسائهم أو يشتكون من بعض مطالبهن فذلك موضوع آخر غير مانحن فيه ، ومسألة النساء التى هى موضوع بحثنا فى بلادنا غير مسألتهن فى مايكتبه بعض الكتاب الغربيين . فإننا فى هذه البلاد نطالب بمنح المرأة حريتها الجسمية وإنالتها حقوقها الشرعية وتهذيبها وتمكينها من اداء وظائفها فى البيت ، وهذا الطلب لاينازعنا فيه غربى مهما انحطت درجته فى العقل والاحساس .

وإنما يشكو بعض الكتاب الغربيين من سوء استعمال بعض النساء لحريتهن ، ومن طلبهن مساواة الرجال فى حقوقهم السياسية .

وحينئذ فالاستدلال بآراء هؤلاء الكتاب للرد علينا هو مغالطة أو خلط بين موضوع وموضوع ، إذ كل إنسان يميز بين تقرير الحق وبين استعماله .

هذه حرية الصحافة هنا وفى بعض بلاد أوروبا قد ساء استعمالها إلى حد أن صار كل إنسان يتألم منها ، ولكن لم يفكر عاقل فى أن يدعى أن الواجب هو الحجر على الافكار ، لأن هذا الدواء يكون أمرّ من الداء الذى يرام معالجته .

فالاسباب التى يبنى عليها كتابنا رأيهم فى الحجر على حرية النساء هى عين الأسباب التى انتحلتها الحكومات الشرقية لحرمان أبنائها من حرية القول والكتابة والعمل . وهى التى أغرت متأخرى المسلمين بقفل باب الاجتهاد فى التوفيق بين أحكام الدين وحاجات الأمم على اختلاف الأمصار والاعصار مع عدم الخروج عن الأصول العامة التى قررها الكتاب والسنة الصحيحة . وهى التى زينت للآباء عندنا أن يستعملوا فى تربية أولادهم وسائل القسوة والغلظة ، وهى التى كانت تقضى على الحكام عندنا ، من عهد ليس ببعيد ، بوضع تعريفة للبائعين يحددون فيها أثمان اللحم والخضار والمسلى وأغلب مايباع ويشترى فى الأسواق .

ومنشأ ذلك كله الاهتمام بازالة المضار التى تظهر فى بعض أحوال البشر والغفلة عن المحافظة على منافعهم . وقد يكون من أسباب تلك الغفلة أن وجوه المنافع فى أحوال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الناس ، وهى جهات حسنها ، تخفى عادة على من ينظر إليها نظرا سطحيا . أما وجوه الضرر فتظهر عادة للعموم ، لأنها تتشكل بأشكال الجرائم والفظائع التى تنفر منها النفوس . فأول ماتتجه إليه النفس النافرة هو أن تمحو هذا الأثر بأية طريقة ، وأقرب الطرق وأسهلها فى بادئ الأمر هو العنف والشدة .

ولكن المتأمل إذا تروى فى الأمور يجد أن لسير الإنسانية قوانين خاصة يجب مراعاة أحكامها فى نمو الحياة واستكمال قواها ، سواء فى الأفراد أو فى الاجتماع ، وأن كل مخالفة لهذه القوانين لها أثر سيئ وضرر عظيم يلحق الفرد أو الهيئة الاجتماعية .

إذا تقرر هذا فسلب المرأة حريتها هو أكبر مخالفة لقوانين نموها العقلى والادبى . فالتعويل على حرمان المرأة من حريتها فى اتقاء ضرر سوء استعمال ذلك الحق ربما يفيد فى منع بعض النساء من إتيان ماينشأ عنه ذلك الضرر ، ولكن من المحقق أنه بجانب هذه الفائدة الخاصة المؤقتة يجلب ضررا عاما مستمرا وهو تعطيل النمو فى ملكات صنف النساء بتمامه .

وبالجملة ، فإننا لانهاب ان نقول بوجوب منح نسائنا حقوقهن فى حرية الفكر والعمل بعد تقوية عقولهن بالتربية ، حتى لو كان من المحقق أن يمررن فى جميع الأدوار التى قطعتها وتقطعها النساء الغربيات ، لأننا على ثقة من أن جميع المطالب التى يطمح إليها نساء الغرب فى هذه الأيام ليست من الوسائل التى يعضل حلها ، ويدوم القلق بسببها ، بل يقضى فيها المستقبل بحكم العقل والحق .

ورب سائل يسأل : إلى متى تنتهى هذه الأدوار التى تنتقل فيها النساء ؟ فالجواب أن ذلك سر مجهول ليس فى طاقة أحد من الناس أن يعلمه ، وكما أننا نجهل ماذا يكون حال الرجل بعد مائتى سنة ، كذلك لايمكننا أن نعرف ماذا يكون حال المرأة بعد مرور هذه المدة ، وإنما نحن على يقين من أمر واحد وهو ان الإنسانية سائرة فى طريق الكمال ، وليس علينا بعد ذلك إلا أن نجد السير فيه ونأخذ نصيبنا منه .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التربية والحجاب

لو لم يكن فى الحجاب عيب إلا أنه مناف للحرية الإنسانية وانه صار بالمرأة إلى حيث يستحيل عليها أن تتمتع بالحقوق التى خولتها لها الشريعة الغراء والقوانين الوضعية ، فجعلها فى حكم القاصر ، لاتستطيع أن تباشر عملا مابنفسها مع أن الشرع يعترف لها فى تدبير شئونها المعاشية بكفاءة مساوية لكفاءة الرجل ، وجعلها سجينة ، مع أن القانون يعتبر لها من الحرية مايعتبره للرجل ـ لو لم يكن فى الحجاب إلا هذا العيب ـ لكفى وحده فى مقته وفى أن ينفر منه كل طبع غرز فيه الميل إلى احترام الحقوق والشعور بلذة الحرية . ولكن الضرر الأعظم للحجاب فوق جميع ماسبق هو انه يحول بين المرأة واستكمال تربيتها .

إذا تقرر أن تربية المرأة من الضرورات التى لايمكن أن يستغنى عنها ، فما هى التربية التى تناسبها ؟ هل يناسبها تربية كتربية الرجل ؟ أو تخص بتربية أخرى ؟ وهل يمكن تربيتها مع الحجاب ؟ أو لابد فيها من ابطاله ؟ وهل يعمل فيها على قواعد تأخذ من العلوم الغربية الحديثة ؟ أو يرجع فيها إلى أصول المدنية الإسلامية القديمة ؟.

هذه المسائل تدخل فى باب التربية والحجاب ، وقد دار البحث والجدل فيها فى العام الماضى بين كثير من الكتاب ، والآن نريد أن نبدى رأينا فيها على غاية من الوضوح .

فى المسألة الأولى ـ لانجد من الصواب أن تنقص تربية المرأة عن تربية الرجل .

أما من جهة التربية الجسمية فلأن المرأة محتاجة إلى الصحة كالرجل ، فيجب أن تتعود على الرياضة كما تفعل النساء الغربيات اللاتى يشاركن أقاربهن الرجال فى أغلب الرياضات البدنية ويلزم أن تعتاد على ذلك من أول نشأتها وتستمر عليه من غير انقطاع وإلا ضعفت صحتها وصارت عرضة للامراض ، ذلك لأن النواميس الطبيعية تقضى بضرورة التوازن بين مايكسبه الجسم ومايفقده بحيث لو اختل هذا التوازن فسدت الصحة واختل نظامها ، والأمراض التى تصيب الإنسان بسبب اهماله استعمال قواه الجسمية ليست بأقل عددا ولا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بأخف ضررا من الأمراض التى تصيب من ينفق قوته ولايعوض بالتغذية مافقد منها . ثم ان ماتقاسيه المرأة من الآلام والمشقات حين الولادة فى مرة واحدة ربما يزيد على مايعانيه الرجل من المتاعب طول حياته ولايحتمله من النساء إلا القويات المزاج صحيحات الاجسام كنساء القرى المتعودات على العمل البدنى المتمتعات بالهواء النقى . أما نساء المدن المحرومات من الحركة والتمتع بالشمس والهواء فلا قدرة لهن على احتمال هذه المشقات . ولذلك فان أكثرهن يعشن عليلات بعد الولادة الأولى ، وكثيرا مايهلكن فيها ، فقد بلغ عدد من يموت منهن فى النفاس أكثر من ثلاثين فى الألف .

وكما نلزم العناية بصحة المرأة لوقايتها من الهلاك والامراض ، كذلك يلزم العناية بصحتها حرصا على صحة أولادها ووقايتهم من العلل . لأن مايعرض على مزاج الأم ومايكون فيه من الاستعداد للمرض ينتقل بالوراثة إلى الأولاد .

وأما من جهة التربية الأدبية فلأن الطبيعة قد اختارت المرأة وندبتها إلى المحافظة على آداب النوع ، فسلمتها زمام الأخلاق وائتمنتها عليها ، فهى التى تصنع النفوس ، وهى ساذجة لاشكل لها ، فتصوغها فى أشكال الأخلاق ، وتنشر تلك الأخلاق بين أولادها فينقلونها إلى من يتصل بهم فتصبح أخلاقا للأمة بعد أن كانت أخلاقا للعائلة كما كانت أخلاقا للعائلة بعد أن كانت أخلاقا للأم . هذا يدلنا على أن المرأة الصالحة هى أنفع لنوعها من الرجل الصالح والمرأة الفاسدة هى أضر عليه من الرجل الفاسد . ولعل هذا هو السبب فى ماوقر فى نفوس الناس فى كل زمان من أن الرذيلة الواحدة إذا تدنست بها المرأة حطت من قدرها أكثر مما تحط من شأن الرجل لو تدنس بها . وأن الفضيلة تعلى من شأن المرأة مالا تعليه من شأن الرجل .

بقى علينا الكلام على القسم الأخير من التربية ، وهو التربية العقلية . هذه التربية هى عبارة عن تعلم العلوم والفنون ، والغاية التى ترمى إليها هى أن يعرف الإنسان مافى الكون من الموجودات ، وفيها نفسه ، حتى إذا عرف ذلك على حقيقته أمكنه أن يوجه أعماله إلى مايعود عليه بالنفع ويتمتع بلذته : المعرفة . فيعيش سعيدا .

والمرأة كالرجل على حد سواء فى الاحتياج إلى الانتفاع بالعلم والتمتع بلذته ، ولا فرق بينها وبينه فى التشوق إلى استطلاع عجائب الكون والوقوف على أسراره لتعلم مبدأها ومستقرها وغايتها .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومهما عظم اشتغال المرأة ، متزوجة أو خالية ، ذات أولاد أم لا ، فإنها تجد من الوقت ماتثقف فيه عقلها وتهذب نفسها .

ولو خصص نساؤنا للمطالعة عشر الوقت الذى يقضينه فى اليوم فى البطالة ولغو الكلام والخصام لارتقت بفضلهن الأمة المصرية ارتقاء باهرا .

ولاتتحصل المرأة على المطلوب من هذه التربية العقلية بتعليمها القراءة والكتابة واللغات الأجنبية ، بل تحتاج أيضا لتعلم أصول العلوم الطبيعية والاجتماعية والتاريخية لكى تعرف القوانين الصحيحة التى ترجع إليها حركات الكائنات وأحوال الإنسان ، كما أنها تحتاج لتعلم مبادئ قانون الصحة ووظائف الاعضاء حتى يمكنها أن تقوم بتربية أولادها .

والمهم فى هذه التربية هو تشويق عقل المرأة إلى البحث عن الحقيقة وليس حشو ذهنها بالمواد حتى إذا انتهت مدة تعليمها فى المدارس استمر شوقها إلى الحق فتتحرك دائما وتعتبر به .

وأضيف على ذلك أنه ينبغى على البنت أن تتعلم صناعة الطعام وترتيب البيت .

ولابد هنا من استلفات النظر إلى وجوب الاعتناء بتربية الذوق عند المرأة وتنمية الميل فى نفسها إلى الفنون الجميلة . وانى على يقين من أن أغلب القراء لايستحسنون أن تتعلم البنات الموسيقى والرسم ، لأن منهم من يرى أن لافائدة فى الاشتغال بهذه الفنون ، ومنهم من يعدها من الملاهى التى تنافى الحشمة والوقار ، وقد ترتب على هذا الوهم الفاسد انحطاط درجة هذه الفنون فى بلادنا إلى حد يأسف عليه كل من عرف ماها من الفائدة فى ترقية أحوال الأمم .

فن التصوير والرسم له فائدة لاتقل عن فائدة العلم ، لأن العلم يعرفنا الحقيقة ، وهذا الفن يحببها إلينا ، لأنه يبديها لنا على الشكل الأكمل الذى يتخيله صاحب الفن فيبعث فينا بذلك الميل إلى الكمال والكمال شىء يدركه عقلنا ، لكنه لايقع تحت حواسنا ، فلا يمكننا أن نتصوره إلا إذا صار مجسما أمامنا فى شكل لطيف نحس به ، ومتى رأيناه فى هذا الشكل تعلقت نفسنا بمحبته ، وكلما كان صاحب الفن ماهرا فى صناعته كان صنعه أقرب للكمال، وكانت النفس أكثر ميلا إليه وأشد اعجابا به وأعظم سرورا بالاحساس به .

ولفن الموسيقى مثل هذه المزايا فانها أفصح لغة تعبر عما فى ضمائرنا ، وألذ مايرد على مسامعنا ، ومن أحسن ماوصفت به قول أفلاطون :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

« إن الموسيقى تبعث الحياة فى الجماد ، ويسمو بها الفكر ، ويرتقى الخيال ، وتبث فى النفس الفرح والسرور ، وترفعها عن الدنايا ، وتميل بها إلى الجمال والكمال . فهى من عوامل الأدب للإنسان » .

هذه هى التربية التى نود أن تكون للبنات ، وقد بيناها اجمالا ، لأن المقام لايسمح ببيانها تفصيلا . هذه هى التربية الكاملة التى تيسر للمرأة الجمع بين واجباتها المختلفة المتعددة فتعدها لأن تكون إنسانا يكسب عيشه بنفسه ، وزوجة قادرة على أن تحصل لعائلتها أسباب الراحة والهناء ، وأما صالحة لتربية أولادها .

متى انتهت تربية البنت باتخاذ مايلزم من الوسائل لتنمية قواها الجسمية وملكاتها العقلية تكون قد بلغت سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرها ، فما الذى ينبغى أن تكون عليه بعد ذلك ؟ وكيف تعيش ؟ أتحجب فى بيتها ، وتمنع عن مخالطة الرجال ؟ أو تطلق لها الحرية فى ذلك ؟ هذا هو موضع البحث فى المسألة الثانية والثالثة وسنتكلم عليهما معا لما بينهما من الارتباط .

رأى المنتقدون على [تحرير المرأة] أننا تطرفنا فى مسألة الحجاب ، وأننا أشرنا برفعه تقليدا للعادات الغربية ، وزعموا أن الحجاب لايوجب انحطاط المرأة ولايترتب عليه ضرر لها ولذلك ذهبوا إلى وجوب استبقائه والمحافظة عليه ، وقالوا : إن الذى حط بالمرأة عن منزلتها إنما هو عدم التربية ، فلو تربت تربية حسنة أمكنها ، وهى فى الحجاب ، أن تقوم بواجباتها أحسن قيام .

على أننا بعد أن دققنا النظر فى جميع ماقيل أو كتب فى هذا الشأن لانزال على رأينا ولم يزدنا تكرار البحث فيه إلا وثوقا بصحة ماذهبنا إليه .

ولانرى سببا للخلاف بيننا وبين مناظرينا إلا الاختلاف فى فهم معنى التربية ، فهم يرون أن التربية هى التعلم ، وذلك يتم على رأيهم بمكث الصغير فى المدرسة سنين محدودة تكون نهاية عمله فيها الحصول على الشهادة الدراسية ، وأنه متى نال هذه الورقة السميكة ، التى سماها بعض ظرفاء الفرنساويين (جلد حمار) ! عد بالغا فى العلم والأدب حد النهاية . ونحن على خلاف ما رأوا نعتقد أن التربية لاتقوم بالمكث فى المدرسة والحصول على الشهادة ، وإنما كل مايستفيده الصبى من ذلك فى أيام التحصيل الأولى هو الاستعداد لتكميل عقله وخلقه .

ذلك لأن الصبى فى السنة الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره لايعرف من العلم إلا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نظريات عامة ومسائل كلية يحفظها فى جمل مختصرة ، ومهما كانت هذه القضايا علمية أو أدبية فلا قيمة لها إلا بظهورها فى العمل ، وذلك يكون بالمشاهدات والتجارب التى تحدد دائرة تطبيقها والحد الذى يفصلها عن غيرها وتبين الأحوال التى تدخل فيها أو تخرج عنها وجهات نفعها وضررها ، هذه التطبيقات هى الواسطة الوحيدة فى فهم القواعد على حقيقتها ، فإذا انعدمت لاتكون هذه القواعد إلا ألفاظا وخيالات .

لهذا لايخطر على بال رجل عاقل أن يسلم نفسه إلى طبيب يوم خروجه من المدرسة ولايختار محاميا للدفاع عنه يوم نيله للشهادة وهو لم يتمرن على العمل زمنا كافيا !.

وكذلك الحال فى الآداب والأخلاق. إذ لاشىء على الإنسان أسهل من أن يعلم مقدار الفائدة فى ضبط شهواته وقهره نفسه ، ولكن لاشىء أصعب فى العمل من أن يأتى ذلك بالفعل . لأن قهر الإنسان لهواه وجعله تحت سلطان العقل يستدعيان قوة عظيمة فى الارادة ، ولاتوجد هذه القوة فى الارادة باقامة الحوائل المادية بينه وبين النقائص ، ولا بمجرد حشو ذهنه بالقواعد الأدبية . وإنما تتولد بالتعرض لملاقاة الحوادث والتعود على مغالبتها والتغلب عليها .

فمزاولة الأعمال ومشاهدة الحوادث واختبار الأمور ومخالطة الناس والاحتكاك بهم والتجارب ، كل هذه الأشياء هى منابع للعلم والآداب الصحيحة ، بها ترتقى النفوس الكريمة حتى تبلغ أعلى الدرجات ، وأمامها تنهزم النفوس الضعيفة وتسقط إلى أسفل الدركات .

قال « سبنسر »[٣٦٠] فى هذا المعنى عند كلامه على التربية العقلية :

« لافائدة من التربية التى تجعل الإنسان مستودعا لأفكار غيره ، لأن الكلمات التى توضع فى الكتب لايمكن أن تنتج معانى إلا على نسبة التجارب المكتسبة » .

وقال « أدمون ديمولان »[٣٦١] عند كلامه على التربية الأدبية ، نقلا عن ترجمة صديق أحمد فتحى باشا زغلول :

---

(٣٦٠) هربرت سبنسر (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣ م) الفيلسوف الانجليزى الذى لقب بفيلسوف التطور .

(٣٦١) (١٨٥٢ ـ ١٩٠٧ م) عالم الاجتماع الفرنسى ، صاحب كتاب [سر تقدم الانجليز السكسونيين] وصاحب كتاب (التربية الحديثة)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

« إن ترتيب الحوادث وسير الوجود يرشدنا إلى أن الأمم التى بلغت فيها همة الإنسان منتهاها ، وهى ملجأ الحياة الأدبية الصحيحة ، حيث تثبت الأخلاق وتبقى المحامد ، وبيانه أن المؤثر الأدبى إنما يجعل المرء قادرا على قهر النفس والتغلب على هواها . وليس من درس يتعلم فيه الرجل قهر نفسه وقيادة زمامها أشد فعلا من الحياة الملية التى يتعلم فيها أن لا اعتماد إلا على نفسه ، وليس من مرب يأخذ بمجامع القلوب أكثر من تلك الحياة ، فهى التى تقود المرء إلى الحياة الحقيقية ، وهى المدرسة الطبيعية التى تريه كيف يتحمل المتاعب والرزايا ، وهى الأسهل تناولا والأكثر شيوعا وطلابا ، تلك ضرورات أشد فعلا فى النفوس من وعظ الواعظين ونصح الحكماء والمرشدين الذين يدخل كلامهم من احدى الاذنين ويخرج من الأخرى . ذلك لأن الأعمال تدعو إلى العمل أكثر من الأقوال » .

فالتجارب هى أساس العلم والأدب الحقيق ، والحجاب مانع للمرأة من ورود هذا المنبع النفيس ، لأن المرأة التى تعيش مسجونة فى بيتها ، ولاتبصر العالم إلا من نوافذ الجدران أو من بين أستار العربة ، ولا تمشى إلا وهى كما قال الأمير على القاضى : « ملتفة بكفن » ، لايمكن أن تكون انسانا حيا شاعرا خبيرا بأحوال الناس ، قادرا على أن يعيش بينهم .

ولايكفى لاخراج المرأة المصرية من هذه الحياة الصناعية التى يشكو الكل منها أن تمكث بضع سنين فى المدرسة ، ثم تنتقل منها إلى بيت تحتجب فيه بقية عمرها . بل يلزم أن تستمر فى الاعتناء بجسمها وعقلها بعد المدرسة ، ونشركها فى حياتنا الطبيعية ، يلزم أن نضع يدنا فى يدها ، ونسير معها فى الأرض ، ونريها عجائب الكون ولطائف الصناعة ودقائق الفنون وآثار الزمن الغابر واختراعات الزمن الحاضر ، يلزم أن تقاسمنا افكارنا وآمالنا وأفراحنا وآلامنا وتحضر مجالسنا ، فستفيد مما يعرض فيها من الأخلاق والأفكار والمباحث وتقيدنا على رعاية الحشمة والتأدب فى القول .

يقول معترض : « انا نراك تريد ان تحسن حال المرأة المصرية بحملها على تقليد المرأة الغربية ، فهلا أعرت تمدننا القديم الذى كان من أصوله احتجاب النساء نظرة ، وهل من نفوس كريمة يهزها ذكرى مجدها القديم فتلتفت إلى أصوله لفتة علمية ترى أنه هو المجد الصحيح الذى يجب أن نشد له رواحل العزائم ، والذى سيتضح للعالم أجمع يوما ما أنه هو نفس الكمال الذى ينشده الإنسان ويلتمسه الوجدان » ؟.

هذا الاعتراض ربما يلذ للقارئ سماعه لطلاوة لفظه ، وربما ينجذب إليه لأنه يحرك الميل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الغريزى فى كل إنسان إلى التعلق بآثار الآباء والأجداد . ولكن الاجدر بنا ألا نجعل للفظ تأثيرا فينا إلى حد يذهلنا عن الحق . وعلينا أن نأخذ أهبتنا لمقاومة سلطة العادات الموروثة إذا خشينا أن تسلبنا ارادتنا واختيارنا . والتعلق بالتقاليد الراسخة لايحتاج إلى التحريض والترغيب ، لأنه حالة لازمة للنفس آخذة بزمامها ، فهى مستغرقة فيها من ذاتها ، وإنما الذى يحتاج للتشويق والتشجيع هو التخلص من ماض ضار واعتناق مستقبل نافع .

إذا أمكنا أن نأخذ تلك الأهبة كان **من أهم مايجب علينا أن نلتفت إلى التمدن الإسلامى القديم ونرجع إليه. ولكن لا لننسخ منه صورة ونحتذى مثال ماكان فيه سواء بسواء . بل لكى نزن ذلك التمدن بميزان العقل ونتدبر فى أسباب ارتقاء الأمة الإسلامية وأسباب انحطاطها ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا أن نقيم عليها بناء ننتفع به اليوم وفى مايستقبل من الزمان .**

ظهر الدين الإسلامى فى جزيرة العرب بين قوم كانوا يعيشون فى حال البداوة ، أى فى أدنى الحالات الاجتماعية . فأوجد بينهم رابطة ملية ، وأخضعهم إلى رئيس واحد ، ووضع لهم شرعا نسخ ماكان عندهم من العادات المتبعة فى معاملاتهم من قديم الزمان . ولما أمرهم بالجهاد أخذوا يحاربون الأمم الأخرى ، واستولوا عليها ، ولم يكن ذلك بامتيازهم على من جاورهم من الأمم فى العلوم والصنائع ، ولكن كان بروح الوحدة التى بعثها الإسلام فيهم ، مع استعدادهم الفطرى للقتال ، فلما اختلطوا بالمصريين والشاميين والفرس والصينيين والهنود وغيرهم وجدوا عند هؤلاء الأمم كثيرا من العلوم والصنائع والفنون . فاستفادوا منها ونقلوا معظمها إلى لسانهم ، وسمحوا لأولئك المغلوبين أن يأتوا فى ترقيتها بما شاءوا ، وظهرت عند ذلك نهضة علمية ، كما هو الشأن فى الأمم عقب كل انقلاب يجرى لغاية صالحة ، استمرت مدة أربعة قرون تقريبا .

على هذين الاساسين شيدت المدنية الإسلامية : **الاساس الدينى** ، الذى كون من القبائل العربية أمة واحدة خاضعة لحاكم واحد ولشرع واحد . **والاساس العلمى** ، الذى ارتقت به عقول الأمة الإسلامية وآدابها إلى الحد الذى كان فى استطاعتها أن تصل إليه فى ذلك العهد .

ولكن لما كان العلم فى تلك الأوقات فى أول نشأته ، وكانت أصوله ضروبا من الظنون لايؤيد أكثرها بشىء من التجارب ، كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة الدين ، فتغلب الفقهاء على رجال العلم ، ووضعوهم تحت مراقبتهم ، وزجوا بأنفسهم فى المسائل العلمية وانتقدوها .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحيث أنهم لم يأتوا إليها من بابها ، ولم يجهدوا أنفسهم فى فهمها أخذوا يؤولون الكتاب والاحاديث بتأويلات استنبطوا منها أدلة على فساد المذاهب العلمية وحملوا الناس على أن يسيئوا الظن بها ، وما زالوا يطعنون على رجال العلم ويرمونهم بالزندقة والكفر حتى نفر الكل من دراسة العلم وهجروه ، وانتهى بهم الحال إلى الاعتقاد بأن العلوم جميعها باطلة إلا العلوم الدينية . بل غلوا فى دينهم وشطوا فى رأيهم حتى قالوا فى العلوم الدينية نفسها أنها لابد أن تقف عند حد لا يجوز لأحد أن يتجاوزه ، فقروا أن ماوضعه بعض الفقهاء هو الحق الابدى الذى لايجوز لأحد أن يخالفه ، وكأنهم رأوا من قواعد الدين أن تسد أبواب فضل الله على أهله أجمعين .

هذا النزاع الذى قام بين أهل الدين وأهل العلم ، ولا أقول بين الدين والعلم ، لم يكن خاصا بالأمم الإسلامية ، بل وقع كذلك عند الأوروبية . ولكن لما كانت هذه الأمم قد ورثت علوم اليونان والرومان والعرب ، وكان وصول تلك العلوم إليها قرب تمام تكوينها ، لم تحتج أوروبا إلى زمن طويل فى اكتشاف الأصول الحقيقية لتلك العلوم ، وقد نالت منها فى مائتى سنة مالم ينله غيرها فى آلاف من السنين . وتوالت الاكتشافات العلمية يجر بعضها بعضا ويرشد بعضها إلى بعض ، فمنها اكتشاف قوانين سير الكون ، وتحليل الضوء ، وسرعة سيره ، وكيفية تكون الأصوات وسرعتها وشكل اهتزازاتها ، وعلمت ماهية الحرارة ، وكيفية تكون الكرة الأرضية وحقيقة شكلها ، وتكون الأرض وتقادم الاعصار عليها وعلى سكانها ، وضروب التغييرات التى طرأت عليها والأدوار التى تقلبت فيها من وقت أن كانت كتلة نارية إلى أن ظهر عليها النوع الإنسانى بعد جميع الأنواع الأخرى . ثم عرفت قوانين الحياة ، ووظائف الدورة الدموية والتنفس والهضم ، وخصائص قوى الادراك ، وكيف تتكون خلايا الجسم وكيف تعيش وكيف تفنى ، وصححت وكملت أصول الكيمياء والطبيعة .

من هذه الاكتشافات أخذ الكتاب والفلاسفة مادعت إليه الحاجة ليعلموا الإنسان من أين أتى وإلى أين يذهب وما هو مستقبله ، ووضعوا أساس العلوم الأدبية والاجتماعية والسياسية .

بكشف هذه الحقائق شيد العلم بناء متينا لايمكن لعاقل أن يفكر فى ان يهدمه . ولهذا تغلب رجال العلم على رجال الدين فى أوروبا بعد النزاع والجهاد ، وانتهى الحال بأن صار للعلم سلطة يعترف له بها الناس كافة .

فإذا كان التمدن الإسلامى بدأ وانتهى قبل أن يكشف الغطاء عن أصول العلوم ، كما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بيناه ، فكيف يمكن أن نعتقد أن هذا التمدن كان (نموذج الكمال البشرى) ؟ يهمنا أن لانبخس أسلافنا حقهم ولانتقص من شأنهم ، ولكن يهمنا مع ذلك ألا نغش أنفسنا بأن نتخيل أنهم وصلوا من التمدن إلى غاية من الكمال ليس وراءها غاية . نحن طلاب حقيقة إذا عثرنا عليها جاهرنا بها مهما تألم القراء من سماعها ، لذلك نرى من الواجب علينا أن نقول : **إنه يجب على كل مسلم أن يدرس التمدن الإسلامى ويقف على ظواهره وخفاياه . لأنه يحتوى على كثير من أصول حالتنا الحاضرة ، ويجب عليه أن يعجب به لأنه عمل انتفعت به الإنسانية وكملت به ماكان ناقصا منها فى بعض ادوارها ، ولكن كثيرا من ظواهر هذا التمدن لايمكن أن يدخل فى نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية .**

أما من جهة العلوم فالأمر ظاهر ، لما سبق بيانه .

وأما من جهة النظامات السياسية فلأننا مهما دققنا البحث فى التاريخ لانجد عند أهل تلك العصور مايستحق أن يسمى نظاما ، فان شكل حكومتهم كان عبارة عن خليفة أو سلطان غير مقيد ، يحكم بواسطة موظفين غير مقيدين ، فكان الحاكم وعماله يجرون فى ادارتهم على حسب ارادتهم ، فإن كانوا صالحين رجعوا إلى أصول العدالة بقدر الامكان ، وان كانوا غير ذلك خرجوا من حدود العدالة وعاملوا الناس بالعسف ، ولم يكن فى النظام مايردهم إلى أصول الشريعة .

ربما يقال : إن هذا الخليفة كان يولى بعد أن يبايعه أفراد الأمة ، وأن هذا يدل على أن سلطة الخليفة مستمدة من الشعب الذى هو صاحب الأمر . ونحن لاننكر هذا ، ولكن هذه السلطة التى لايتمتع بها الشعب إلا بعض دقائق هى سلطة لفظية ، أما فى الحقيقة فالخليفة هو وحده صاحب الأمر ، فهو الذى يعلن الحرب ويعقد الصلح ويقرر الضرائب ويضع الأحكام ويدير مصالح الأمة مستبدا برأيه ولايرى من الواجب عليه أن يشرك أحدا فى أمره .

ومن الغريب أن المسلمين فى جميع أزمان تمدنهم لم يبلغوا مبلغ الأمة اليونانية ، ولم يتوصلوا إلى ماوصلت إليه الأمة اليونانية من جهة وضع النظامات اللازمة لحفظ مصالح الأمة وحريتها ، فقد كان لتلك الأمم جمعيات نيابية ومجالس سياسية تشترك بها مع الحكام فى إدارة شئونها .

وأغرب من هذا أن أمراء المسلمين وفقهاءهم لم يفكروا فى وضع قانون يبين الأعمال التى وجدوا أنها تستحق العقاب ويحددوا العقوبات عليها ، بل تركوا حق التعزير إلى الحاكم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يتصرف فيه كيف يشاء ، مع أن بيان الجرائم وعقابها هما من أوليات أصول العدالة .

ولست محتاجا أن أقول إنهم ماكانوا يعرفون شيئا من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فان هذه العلوم حديثة العهد ، وإذا أراد مكابر أن يتحقق من ذلك فما عليه إلا أن يتصفح مقدمة ابن خلدون . وهو الكتاب الفرد الذى وضع فى الأصول الاجتماعية عند المسلمين يرى أن الأصول التى اعتمد عليها لايخلو معظمها من الخطأ ، ويندهش على الخصوص عندما يرى أن هذا الكتاب الذى وضع للبحث فى المسائل الاجتماعية لم تذكر فيه كلمة واحدة فى العائلة التى هى أساس كل هيئة اجتماعية ، فإذا كانت حالتهم السياسية هى كما ترى فما الذى يطلب منا أن نستعيره منها ؟.

كذلك إذا نظرنا إلى حالتهم العائلية نجد أنها مجردة عن كل نظام حيث كان الرجل يكتفى فى عقد زواجه بأن يكون أمام شاهدين ، ويطلق زوجته بلا سبب أو بأوهى الأسباب ويتزوج عدة نساء بدون مراعاة حدود الكتاب . كل ذلك كان واستمر إلى الآن على ماهو مشهور ، ولم يفكر أحد من الحكام أو الفقهاء فى وضع نظام يمنع انحلال روابط العائلة ، وأقل ماكان يلزمهم لرفع ذلك الخلل أن يقروا مثلا أن ايقاع الطلاق وعقود الزواج والرجعة لابد أن تكون أمام مأمور شرعى حتى لاتبقى هذه الشئون موضعا للريب ومحلا للشبهة ومثارا للنزاع والشقاق .

أين هذه الفوضى من النظامات والقوانين التى وضعها الأوروبيون لتأكيد روابط الزوجية وعلاقات الأهلية ؟ بل أين هى من القوانين اليونانية والرومانية التى لم تغفل فى جميع أدوارها عن أهمية العائلة وشأنها فى الهيئة الاجتماعية ؟ فأى شىء من هذا يمكن أن يكون صالحا لتحسين حالنا اليوم ؟ .

بقى علينا ان نلتفت إلى التمدن الإسلامى من جهة الآداب . يعتقد أهل عصرنا أن المسلمين السابقين كانوا حائزين لجميع أنواع الكمالات الأخلاقية الصحيحة ، وهو اعتقاد غير صحيح أو على الأقل مبالغ فيه .

أما من جهة أصول الأدب ، فالمعلوم أن المسلمين لم يأتوا للعالم بأصول جديدة ، فقد سبق المسلمين أمم كاليهود والنصارى والبوذيين والصينيين والمصريين وغيرهم ، وقد كانت تلك الأمم تعرف تلك الأصول ، وضمنتها كتبها ، ونزلت على بعضها فى وحى سماوى .

وأما من جهة عمل المسلمين على مقتضى تلك الأصول الأدبية ، فالتاريخ يشهد على أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كل عصر لايخلو من الطيب والردىء والحسن والقبيح ، وقد وصلت إلينا أخبار العرب مدونة فى الكتب التاريخية والأدبية فكشفت لنا الغطاء عن اخلاقهم ومعاملاتهم ، واطلعنا على شعرهم وأمثالهم وأغانيهم فما وجدنا زمنا من الأزمان خاليا من الآداب الفاسدة والاخلاق الرذيلة والطبائع الدنيئة . رأينا الدولة العربية من بعد وفاة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى آخر أيامها ممزقة بالمنازعات الداخلية الناشئة عن التباغض والحقد وحب الذات ، حتى فى الأوقات التى كانت فيها الدولة مشتغلة بأهم الحروب مع الأمم الأخرى رأينا أحد أولاد على رضى الله عنه تزوج بأكثر من مائة امرأة حتى التجأ والده أن ينصح الناس بألا يزوجوه بناتهم ؟. رأينا من الرجال من كان يعترض النساء فى الطريق ويختلس النظر إليهن من خروق الحائط ! رأينا من أمرائهم وأعاظمهم من كان يشرب الخمر حتى لايعى مايقول فى مجالس تحضرها الجوارى وتطرب الحاضرين بنغمات الموسيقى !. رأينا من شعرائهم من يستجدى العطايا ويمد يده ملتمسا رزقه من فضلات الأمراء والأغنياء ، ومنهم من يمدح نفسه ويثنى عليها ويذهب فى ذلك إلى حد ليس بعده إلا الجنون ، أو يتغزل فى ولد ، أو يهجو خصمه بعبارات الفحش وألفاظ الوقاحة التى يستحى من تصورها فضلا عن التفوه بها !. رأينا من مؤرخيهم من يزور فى التاريخ ومن فقائهم من يخترع الأحاديث ويضعها لغايته الذاتية !.

فأى زمن من الأزمان السابقة كان منزها عن العيوب حتى يصح أن يقال أنه (نموذج الكمال البشرى) ؟ الكمال البشرى لايجب أن نبحث عنه فى الماضى ، بل إن أراد الله أن يمن به على عباده فلا يكون إلا فى المستقبل البعيد جدا .

من أغرب ما اعتاد عليه العقل الإنسانى أن يظن أن العصر الذى هو فيه أحط منزلة فى الكمال من العصر الذى سبقه ، ومنشأ ذلك أن الأبناء ينشأون على احترام آبائهم وتعظيم كل مايصدر عنهم ، فالكمال عندهم ماوجدوا عليه آباءهم ، ويزيد ذلك تقريرا فى نفوسهم أن الآباء يستهجنون دائما ماصار إليه أبناؤهم مما لم يكن معهودا لهم ، لا يستطيعون أن يغيروا أنفسهم ، فيكون وهم الأبناء وغرور الآباء كل منهما عونا للآخر على استقباح الحاضر وعبادة الماضى .

ولو صح مايزعمون لكان أكمل إنسان هو أول من وجد من نوعه ، ولاستمر النقص عصرا بعد عصر إلى هذا اليوم ، ولكانت نهاية الإنسان أن يصير حيوانا أعجم ، مع أنه من الثابت أن عصورا مضت على النوع الإنسانى وهو فى أدنى مراتب الإنسانية ، ثم ارتقى بالتدريج إلى أن وصل إلى هذه الدرجة العليا التى يحق له أن يفتخر بها .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

متى تقرر أن المدنية الإسلامية القديمة هى غير ماهو راسخ فى مخيلة الكتاب الذين وصفوها بما يحبون أن تكون عليه ، لاسيما كانت فى الحقيقة عليه ، وثبت أنها كانت ناقصة من وجوه كثيرة ، فسيان عندنا بعد ذلك أن احتجاب المرأة كان من أصولها أو لم يكن ، وسواء صح أن النساء فى أزمان خلافة بغداد أو الأندلس كن يحضرن مجالس الرجال أو لم يصح ، فقد صح أن الحجاب هو عادة لايليق استعمالها فى عصرنا .

ونحن لانستغرب أن المدنية الإسلامية أخطأت فى فهم طبيعة المرأة وتقدير شأنها ، فليس خطؤها فى ذلك أكبر من خطئها فى كثير من الأمور الأخرى .

وغنى عن البيان أننا عند كلامنا على المدنية الإسلامية لم نقصد الحكم عليها من جهة الدين ، بل من جهة العلوم والفنون والصنائع والآداب والعادات ، التى يكون مجموعها الحالة الاجتماعية التى اختصت بها ، ذلك لأن عامل الدين لم يكن وحده المؤثر فى وجود تلك الحالة الاجتماعية فهو على مابه من قوة السلطان على الاخلاق لم ينتج إلا أثرا مناسبا لدرجة عقول وآداب الأمم التى سبقت .

والذى أراه أن تمسكنا بالماضى إلى هذا الحد هو من الأهواء التى يجب أن ننهض جميعا لمحاربتها ، لأنه ميل يجرنا إلى التدنى والتقهقر ، ولايوجد سبب فى بقاء هذا الميل فى نفوسنا الا شعورنا بأننا ضعاف عاجزون عن انشاء حال خاصة بنا تليق بزماننا ويمكن أن تستقيم بها مصالحنا ، فهو صورة من صور الاتكال على الغير ، كأن كلا منا يناجى نفسه قائلا لها : أتركى الفكر والعمل والعناء واستريحى فليس فى الامكان أن نأتى بأبدع مما كان !.

هذا هو الداء الذى يلزم أن نبادر إلى علاجه ، وليس له من دواء إلا إننا نربى أولادنا على أن يعرفوا شئون المدنية الغربية ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها .

إذا أتى هذا الحين ـ ونرجو ألا يكون بعيدا ـ انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس ، وعرفنا قيمة التمدن الغربى ، وتيقنا أنه من المستحيل أن يتم اصلاح مافى أحوالنا إذا لم يكن مؤسسا على العلوم العصرية الحديثة ، وأن أحوال الإنسان مهما اختلفت وسواء كانت مادية أو أدبية خاضعة لسلطة العلم .

لهذا نرى أن الأمم المتمدنة على اختلافها فى الجنس واللغة والوطن والدين متشابهة تشابها عظيما فى شكل حكومتها وادارتها ومحاكمها ونظام عائلتها وطرق تربيتها ولغاتها وكتابتها مبانيها وطرقها ، بل فى كثير من العادات البسيطة كالملبس والتحية والأكل ، أما من جهة العلوم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والصنائع فلا يوجد اختلاف إلا من حيث كونها تزيد أو تنقص فى أمة عن أمة أخرى .

من هذا يتبين أن نتيجة التمدن هى سوق الإنسانية فى طريق واحدة ، وان التباين الذى يشاهد بين الأمم المتوحشة أو التى لم تصل إلى درجة معلومة من التمدن منشأه أن أولئك الأمم لم تهتد إلى وضع حالتها الاجتماعية على أصول علمية .

هذا هو الذى جعلنا (نضرب الامثال بالاوروبيين) ونشيد بتقليدهم ، وحملنا على أن (نستلفت الأنظار إلى المرأة الأوروبية) .

هذه مسألة تحديد حقوق المرأة وتربيتها قد اجتهدت كثيرا فى أن أقف على رأى علماء المسلمين فيها . من المتقدمين أو المتأخرين ، فما وجدت شيئا . وقد نبهنى أحد أصحابى إلى كتاب ألفه فى هذا الموضوع حضرة الشيخ حمزة فتح الله[٣٦٢] المفتش بنظارة المعارف ، وقد قرأته من أوله إلى آخر فوجدته يحتوى على كل شىء ولكنه لم يشمل على شىء مما وضع الكتاب لأجله ! ومن الغريب أن الذين لم يرق فى نظرهم إعجابنا بالأوروبيين اضطروا جميعهم بمن فيهم الشيخ الأزهرى ، أن يستشهدوا فى الرد علينا بآراء بعض العلماء والكتاب الأوروبيين ، نساء ورجالا !.

فإن كان منهم من يقول : إنى قليل الاطلاع على ماكتبه المسلمون ، قصير الباع فى علومهم ، فأنا لا أجادله فى هذا ، وإنما يسرنى ويملأ قلبى بهجة أن أرى كتابا اسلاميا ، قديما أو جديدا ، يحتوى على حقوق المرأة ومايجب عليها من حيث هى امرأة وزوجة وأم وفرد من أمة ، فإن جاءنى من يزعم قلة اطلاعى وقصر باعى بكتاب مثل هذا أثقلته حمدا وشكرا .

وسيقول أرباب الأفكار عندنا : إنا نسلم بأن المدنية الأوروبية صحيحة حسنة نافعة بالنسبة للعلوم التى توصلت إلى جمعها وإنمائها واستخدامها ، ولكنها فاسدة رديئة ضارة بالنسبة للاخلاق والآداب التى تلازمها فى كل مكان وصلت إليه .

فهم يعترفون للغربيين بأنهم أرقى منا فى العلوم والفنون والصنائع ، ويعترفون بأن معارفهم أوصلتهم إلى توجيه أعمالهم فى طريق تحصيل منافعهم بأحسن الوسائل الموصلة إلى السعادة فى هذه الدنيا ، ولكنهم متى رأوا طرق معاملاتهم بعضهم مع بعض ، وخصوصا كيفية

---

(٣٦٢) حمزة فتح الله (١٢٦٦ ـ ١٣٣٦ هـ ـ ١٨٤٩ ـ ١٩١٨ م) أديب وعالم وصحفى مصرى . له أبحاث لغوية . وشارك فى مؤتمر المستشرقين بفينا واستوكهلم . وترك عددا من الرسائل والمصنفات .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معاملة رجالهم لنسائهم ، أو سمعوا بها ، تغير حكمهم عليهم تغيرا كليا ، وأعرضوا عن فهم ماهم فيه وصرحوا بأنهم أحط منا فى الآداب . هذا الاعتقاد يشبه أن يكون عاما فينا كما يلاحظ من يقرأ الجرائد ومن يلتفت إلى الأحاديث التى تدور بين الناس ، وهو اعتقاد لايصعب علينا بيان سببه .

ذلك أننا ندعن بتقدم الغربيين علينا فى العلوم والصنائع لأننا نرى آثارها محيطة بنا من جميع أطرافنا ، فكلما التفتنا إلى جهة من جهاتنا وجدنا أثرا منها مشهودا ، نراها فى البيت : فى مأكلنا ومشربنا وملبسنا وجميع أدوات المنزل وأثاثه . نراها فى المدرسة مدة التعليم ، ثم من النظامات التى تدور عليها جميع أصول وفروع ادارتنا وحكومتنا . نراها فى الطرق على شكل عمارات فاخرة وحوانيت كبيرة وبساتين منتظمة وشوارع نظيفة تسير فيها العربات والآلات البخارية والكهربائية . وبالجملة نرى فى كل آن وفى كل مكان برهانا ماديا لايمكن معه إلا التسليم بأننا متأخرون عن الغربيين كثيرا فى المعارف العلمية والصناعية .

وكأنما نريد أن نمحو العار الذى يلحقنا من هذا الاعتراف ، ونأخذ بثأرنا ، فلا نجد وسيلة لذلك إلا أن ندعى أننا أرقى منهم فى الآداب ، وأنهم ان سبقونا فى الماديات ومظاهرها فقد سبقناهم فى الروحانيات وسرائرها .

وإنما سهل علينا التمسك بهذه الدعوى لأن التقدم فى الماديات مما يقع تحت الحس ، فلا يمكن انكاره ، أما التقدم فى الأمور المعنوية فهو مما لايدرك إلا بالعقل ، فلا يقف عليه كل إنسان ويجد المكابر فى غيبته عن الحس مجالا للانكار ، وقد يساعد المكابر فى مكابرته مايراه أو يسمع به فى البلاد الغربية من كثرة الملاهى ومسارح الشهوات وغير ذلك من سيئ العادات التى يتبرأ منها الغربيون أنفسهم ويتألمون لانتشارها والعقلاء منهم يسعون فى محوها أو تقليلها ولكنهم يأسفون على أن مساعيهم تعجز عن الوصول إلى مايتمنون ، فاغتنمنا فرصة وجود هذه العيوب وأقمنا منها حجة لتأييد دعوانا .

ومما أخذناه على الغربيين فى آدابهم تكشف نسائهم واختلاطهن بالرجال وتمتعهن بالحرية التامة واحترام الرجال لهن . وكثير منا يعد هذه العادات أسبابا لفشو الفساد فيهم . ويعتقدون أن جميع نسائهم لايعرفن العفة ، وكل الرجال مجردون عن الغيرة .

ولما كانت غاية التمدن هى تهذيب النفس وتطهيرها من الرذائل والابتعاد بها عن المنكرات والخبائث ونشر الفضيلة بين الناس ، كان لنا الحق فى احتقار المدنية الأوروبية ، ان صح ما اعتقناه فيها .

ولكن هل هذا الاعتقاد صحيح ؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما كون الآداب فى الغرب أحط منها فى الشرق فهى مسألة لايسمح لنا موضوعنا باستيفاء البحث فيها ، ويمكننا أن نجمل الكلام عليها فى قليل من العبارات :

إن العداوة القديمة التى استمرت أجيالا بين أهل الشرق والغرب ، بسبب اختلاف الدين ، كانت ولا تزال إلى الآن سببا فى أن جهل بعضهم أحوال بعض ، وأساء كل منهم الظن بالآخر، وأثرت فى عقولهم حتى جعلتها تتصور الأشياء على غير حقيقتها. إذ لاشىء يبعد الإنسان عن الحقيقة أكثر من أن يكون عند النظر إليها تحت سلطان شهوة من الشهوات لأنه إن كان مخلصا فى بحثه محبا للوقوف على الحقيقة ، وهو مايندر وجوده ، فلابد أن شهوته تشوش عليه فى حكمه ، وأدنى آثارها ان تزين له مايوافقها وتستميله إليه ، وان كان من الذين لامنزلة للحق من نفوسهم ـ وهم السواد الاعظم ـ ضربوا دون الحق أستارا من الاكاذيب والأوهام والأضاليل مما تسوله لهم شهوتهم حتى لايبقى لشعاع من أشعة الحق منفذ إلى القلوب .

وزد على ذلك أن التربية العلمية لم توجد فى العالم الغربى إلا من زمن قريب ، وهى لاتزال إلى الآن مفقودة فى الشرق ، والمحروم من هذه التربية لايسهل عليه أن يبنى أحكامه على مقدمات صحيحة ، لأن الجاهل يستمد حكمه من احساسه لا من عقله ، فهو لايستحسن الشىء لأنه مطابق للحق ، وإنما يعتقد الشىء مطابقا للحق لأنه يستحسنه بخلاف المتعود على الابحاث العلمية ، فإن عقله ينخدع بإحساسه ، فكلما أراد أن يشتغل بمسألة طبيعية أو تاريخية مثلا جمع الحوادث التى تتعلق بها ورتب الوقائع واستنبط منها القاعدة التى يحكم بصحتها بناء على ماحصل من المقدمات ، غير صادر فى ذلك إلا عن حب الحقيقة ، فإذا عرض له أن يشتغل بالنظر فى حال جاره أو عدوه استعمل الطريقة التى ألفها وسلم بما تؤدى إليه من النتائج وخضع لها ولو كانت مخالفة لما يهواه .

ولقد وصل الغربيون إلى درجة رفيعة من التربية ، واشتغل كثير ممن كملت فيهم تلك التربية بالبحث عن أحوال الشرقيين والمسلمين ، وكتبوا فى عاداتهم ولغتهم وآثارهم ودينهم وألفوا فيها كتبا نفيسة أو دعوها آراءهم ونتائج بحثهم ، وامتدحوا ما رأوه مستحقا للمدح وقدحوا فى مارأوه محلا للقدح ، غير ناظرين فى ذلك إلا إلى تقرير الحق واعلان الحقيقة صادفوا الصواب أم أخطأوه. أما عندنا فلم تبلغ التربية من الناس هذا المبلغ ، ولهذا كان حكم كتابنا فى هذه الاشياء فى قياد الشهوات وتحت سلطة الاحساس والإلف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والعادة ، ومن وجد لشعاع الحق لمعانا فى بصيرته وجد من خوف اللائمة عقدة فى لسانه تمنعه من اظهاره ، أو حمله الرياء على اطالة القول فى تأييد مالا يعتقده ، فإذا وجد بينهم مخلص فى القصد طالب للحق وجهر به كان نصيبه أن يتهم بالتجرد عن الوطنية وبالعداوة للدين والملة ـ وأشدهم اقتصادا فى ذمة يرميه بالطيش والخفة توهما منه أن الاعتراف بفضل الاجنبى مما يزيد طمع الاجانب فينا وأن اظهار عيوبنا مما يوقع اليأس فى قلوبنا ـ .

ولا عذر لهم فى حكمهم هذا إلا أنهم قد جروا فيه على سننهم فى سائر أحكامهم ، وإلا فهم مخطئون ، لأن السبب فى طمع الأجانب فينا ليس هو اعترافنا بانحطاطنا ، وإنما هو نفس ذلك الانحطاط الذى عرفه الاجانب منا قبل أن نحس به من انفسنا ، فهم قد اكتشفوا ماكانت عليه بلادنا من منذ خمسة آلاف سنة ، ووقفوا على أخلاق المصريين وتفصيل أحوالهم فى معيشتهم أيام الفراعنة ، وجمعوا من حقائق ذلك الوقت شيئا كثيرا لم يصل إلينا إلا منهم ، وقليل منا من يعرفه ! فلاعجب أن يكونوا أسبق منا إلى معرفة حالتنا الحاضرة ، نقصها وكمالها .

ثم لاخوف أن يلحقنا اليأس عند شعورنا بانحطاطنا ، لأن اليأس إنما يكون عند استحالة الخلاص من التهلكة ، وليس لهذه الاستحالة محل بالنسبة إلينا ، خصوصا أن الأمم لاتقف فى حياتها عند حد ، بل هى موضوع للتقلبات والتغيرات ، وتتوارد عليها أحوال القوة والضعف والشدة والرخاء ، فلا تدوم على حال . وإذا عرضت عليها الشدة يوما لاتلبث أن تخرج منها بجدها واجتهادها . وبديهى أن التوجه إلى الاصلاح والكمال لايكون إلا بعد الشعور بالنقص . فما لم تستشعر الأمة بتأخرها عن الأمم الأخرى وتقصيرها عن الوصول إلى ماوصل إليه غيرها من غايات الكمال لاتنبعث إلى التقدم ولاتتحرك لإدراك غاية من هذه الغايات ولذلك كان تنبيه الأمة إلى نقصها واشعارها بحقيقة منزلتها من بقية الأمم أول فرض يجب القيام به ، كما أن شعور الأمة بهذا النقص يعد أول خطوة فى سبيل ترقيها .

لهذا لانتردد فى أن نصرح بأن القول بأننا أرقى من الغربيين فى الآداب هو من قبيل ماتنشده الامهات من النغائم لتنويم الأطفال !.

وغاية مافى الأمر أن تقدم الأوروبيين علينا من هذه الجهة لايقام الدليل عليه بآثار مادية ، كتقدمهم فى العلوم والصنائع ، وإنما يعرفه من خالطهم واختبرهم فى ظاهر شئونهم وباطنها حتى وقف على منزلتهم من الخصائص الأدبية .

ينقسم الأوروبيون ، كما تنقسم سائر الأمم ، إلى ثلاث طبقات : عليا ، ووسطى ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ودنيا . فأما الطبقة الدنيا فأكبر حظها من التربية معرفة القراءة والكتابة وقليل من مبادئ العلوم ، وهم فى أخلاقهم الشخصية أشد فسادا من عامتنا فى أخلاقها .

وأما الطبقة العليا فتصيب حظا عظيما من التربية العقلية ، ولكن يغلب عليها مايغرى به الغنى والبطالة ، وتستولى عليها الشهوات ، فهم يتفننون فى اللذائذ تفنن أهل الجد فى الاختراعات والصنائع .

وسبب ذلك أن المدن الذى يعيشون فيه يسهل لهم ارضاء شهواتهم ، ويجدون من الوسائل لذلك مالا يوجد عندنا ، فأبدعوا فى اختراع طرق التلذذ وأعطوها الاشكال التى تجذب النفوس إليها ، فالكهرباء مثلا التى تضىء المدن وتنقل الأخبار وينتفع منها الزارع والتاجر والصانع والمسافر والمريض تقوم لأرباب الخلاعة بخدمات من الوجه الذى يناسبهم وكذلك ترى لهم جرائد وكتبا وميادين تمثيل تختص بهم ، كما أن لهم الجنان الناضرة والقصور الشاهقة .

هذا الفساد مما تتحمله المدنية الغربية وتصبر عليه لأنها لاتستطيع محوه ، فإن هذه المدنية مؤسسة على الحرية الشخصية ، فهى مضطرة لأن تقبل مايتبع هذه الحرية من الضرر ، لأنها تعلم ان منافعها أكثر من مضارها .

فوجود الفساد فى الغرب إنما هو لاحق طبيعى من لواحق الحرية الشخصية ونتيجة من نتائجها فى الطور الأدبى الحالى الذى توجد فيه تلك البلاد الآن .

ولا يشك أحد فى أنه مع مرور الزمن وانتشار المعارف وتحسين طرق التربية فى طبقات الأمة ، عاليها ودانيها ، تتهذب النفوس شيئا فشيئا ، وتقرب من الكمال الذى هو ضالتها .

غير أنه لايفوت القارئ ان هذا الفساد الذى ذكرناه فى الأمم الغربية لم يضعف فيهم الفضائل الاجتماعية التى هى الركن الأقوى لبناء الأمم ، وما يتبع تلك الفضائل من بذل الأنفس والأموال فى سبيل تعزيز الوطن أو الدفاع عنه ، فأدنى رجل فى الغرب كأعلى رجل فيه إذا دعا داع إلى هجوم أو قيام لدفاع أو إلى عمل نافع يترك جميع لذائذه وينساها وينهض لإجابة الداعى ويخاطر بنفسه ويبذل ماله إلى أن يتم للأمة ماتريد ، فأين حال هاتين الطبقتين من هذه الفضائل الجليلة فى الأمم الغربية من حالة الأمة الشرقية ؟ .

وأما الطبقة الوسطى فلا ريب أنها أرقى من التى تقابلها عندنا ، نحن فى الحقيقة لانعرف من أحوال الغربيين إلا بعض ماظهر منها ، والكثير منا لاتزيد معرفته على ماعرف منها فى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشوارع والقهاوى وماقرأه فى بعض القصص والحكايات ، وليس من الحق ولا من العدل أن نظن هذه الظواهر هى صورة تامة لحقيقة منزلتهم من الأدب .

من أراد أن يكون حكمه فيهم صحيحا فعليه ان يلم بجميع مظاهر حياة تلك الأمم ويقف على جميع الاحساسات والعواطف التى تحرك نفوسهم ، وهذا أمر يحتاج لمعرفة تامة بلغتهم وتاريخهم وعاداتهم وأخلاقهم ، فإذا تمت للباحث هذه الشروط أمكنه ان يعرف لم يهب رجل ألمانى حياته ويترك زوجته وأولاده مساعدة لأمة البوير ؟. ولماذا يحتقر عالم من العلماء طيب العيش ولذائذ الحياة ويرجح الاشتغال بحل مسألة أو كشف غامضة أو فهم علة ؟ وكيف أن سياسيا واسع الثروة عالى المقام يفنى زمنه فى تدبير الوسائل لإعلاء شأنه أمته ، وربما حرم نفسه راحة النوم فى ذلك السبيل ؟. وماهو المحرك للسائح الذى يقضى الشهور والسنين بعيدا عن أهله وبلده لكشف منابع النيل مثلا ؟. وماهو الاحساس الذى يرضى القسيس بالمعيشة بين المتوحشين مع مايتكبده من أنواع العذاب ومايحيط به من الاخطار ؟. وما هذا الوجدان الذى يسوق الغنى إلى ان يبذل آلافا من الجنيهات لجمعية من الجمعيات الخيرية أو لعمل يعود نفعه على أمته أو على الإنسانية ؟.

إذا علم السر فى هذه الصفات ومصادر هذه الأعمال الجليلة ، ثم علم مابين أعضاء العائلات من الوفاق والائتلاف والمحبة ، ونظر إلى مافى معاملاتهم من الصدق فى القول والغيرة على الحق ونمو احساس الشرف والميل إلى مساعدة الضعيف والفقير والرأفة بالحيوان فلا شك أنه ينتهى من هذا العلم إلى نتيجة صحيحة وهى أن هؤلاء القوم على جانب عظيم من الادب والفضيلة ، لأن هذه الأعمال والأحوال تدل على ضعف سلطان حب النفس ، كما تدل على نمو الاحساس بحاجة كل من أفراد الأمة إلى الآخر ، والترقى الأدبى إنما هو التضامن بعينه .

وليس هذا بغريب ، فإن التقدم فى العلوم يؤدى إلى التقدم فى الآداب والاخلاق . لاريب أن الارتقاء العقلى يصحبه الارتقاء الأدبى دائما ، فإن العلم هو المادة التى يتغذى منها الأدب . لا أقول أنه لايوجد الادب إلا حيث يوجد العلم ، وإنما أقول : ان أدب الجاهل لايمكن أن يكون ثابتا فى نفسه مثل ثبات الأدب فى نفس العالم . العلم يخاطب العقل والحقائق العلمية لاتطلب أن يسلم بها من غير مناقشة ، بل تحتاج إلى بحث وتعب وشغل والاعتياد على الاشتغال بالعلم يكسب الاعتياد على ضبط النفس ، الذى هو أهم أركان الادب ، فإذا هم شخص اشربت نفسه العلم أن يعمل أمرا مخالفا للآداب نزع منه نازع إلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النظر فى ذلك الأمر وآثاره ومزاياه ومضاره ، ثم رجع إلى نفسه ليعلم هل هو يصح لها أو لايصح . ويندر حينئذ أن يقدم عليه . أما الجاهل فإن كان فاضلا لم تكن الفضيلة فيه إلا عادة مجردة ، وهو مستعد للاذعان إلى مايتأثر به ، حسنا أو قبيحا ، ومائل إلى قبول مايرى أغلب الناس عليه بدون بحث ، فإذا انقطعت العادة مرة ، وذاق لذة الرذيلة ، انفلت قياد نفسه من يده ، واستحال عليه أن يرجع إلى ماكان عليه من قبل .

رأينا أن العلم يقوى حكم العقل ويهذب النفس ، وأضيف على ذلك أنه يعظم الاحساس الدينى . وليس فى ذكر هذه العبارة خروج عن الموضوع ، لأن الدين والادب يرجعان فى الحقيقة إلى شىء واحد .

واجمل ماقيل فى هذا المعنى ما أتى به الفيلسوف « سبنسر » فى كتابه الذى كتبه فى التربية أقتطف منه هنا بعض مايليق بالمقام . قال :

« ليس العلم منافيا للاحساس الدينى ، كما يزعم كثير من الناس ، بل ترك العلم هو المناف للدين . ولنضرب لذلك مثلا فنفرض أن عالما من كبار المؤلفين يصنف الكتب ويقرر الحقائق والناس يثنون عليه ويطلقون ألسنتهم بمدحه ، ولكنهم مع ذلك لم يروا من كتبه إلا غلفها ، ولم يقرأوا شيئا منها ، ولم يجهدوا أنفسهم يوما فى فهم مااحتوت عليه ، فماذا تكون قيمة هذا المدح فى نظرنا ؟ وما الذى نعتقده فى صدق هؤلاء المادحين ، ان جاز لنا أن نقيس عظائم الاشياء بصغارها ؟ نقول : ان الناس يعاملون الكون وخالقه بهذه المعاملة !. وأدهى مايأتون من تلك المعاملة أنهم لايكتفون بأن يعيشوا ويموتوا وهم لايعرفون حقيقة من حقائق تلك الأشياء التى ينادون بأنها من أبدع البدائع وأغرب الغرائب ، بل ينحون باللائمة على من يشتغل بفهم حقائقها والوقوف على ما أودع فيها من الاسرار ، ولو فقهوا لعلموا أن اهمال العلم هو المضعف للاحساس الدينى ، بل الماحق له . أما خدمة العلم فهى عبادة يؤديها القلب ، لأن خدمة العلم هى اعتراف ضمنى بأن للمخلوقات قيمة عالية ، وأن الذى أوجدها له شأن أعلى ومقام أسمى . خدمة العلم هى احترام للكون وصانعه يؤديه طالب العلم ، لا بمجرد الفم واللسان ولكن ببذل وقته وفكره وعمله » .

نستنتج مما سبق أن تقدم الغربيين فى العلوم ساعد كل المساعدة على ترقيتهم فى الآداب وأن تأخر المعارف عندنا كان سببا فى انحطاط آدابنا .

وهذه حوادث عائلاتنا وما يجرى فيها بين الاب وابنه والاخ وأخيه والزوج وزوجته مما لايحتاج بيانه إلى تفصيل . وهذه حوادث القرى وما يشاهد فيها من الحسد والتباغض

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والخيانة والمنازعات والجرائم البهيمية التى يحار العقل فيها ، وهذه حوادث الوطن ومايرى فى روابط أهله من الانحلال وتفرقهم فى الرأى فى أحقر الشئون وحرصهم على المال ألا ينفقوه فى سبيل أى منفعة من المنافع العامة وضنهم بشىء من أوقاتهم للفكر فى أى مصلحة من مصالح بلادهم ، كل هذا برهان على انحطاط أخلاقنا ، وما يكون عندنا من محاسن الاخلاق ، كالكرم المعهود فى كثير من بلاد الارياف ، يرجع فى الحقيقة إلى عيب من العيوب كالتنافس فى حب الشهرة ، ولهذا ترى الكثير من أعيان البلاد المشهورين بإكرام الضيف والمبالغة فى الاحتفال به يسيرون فى سائر شئونهم على خلاف مقتضى الكرم ، فيظلمون الفقير ويطمعون فى أموال الضعفاء من أقاربهم ، وخصوصا النساء منهم ، ويضيقون على عائلتهم فى المعيشة ، ويأتون من ذلك ما تأباه النفس الكريمة .

وحال الأمة التركية لايختلف فى ذلك عن حالنا . نعم ، فى بعض بلاد الريف هناك رقى فى الآداب والاخلاق وامتياز لها على الاخلاق والآداب المصرية . ولكن لاسبب لذلك إلا أن التركى يعيش فى قريته بغاية السذاجة ، وعلى ضرب من سعة العيش ، فلا يجد مايحمله على ارتكاب مايخالف الآداب الحسنة ، وهو بعيد عن كثير من الرذائل ، لأنه يجهلها ولا يتصور وجودها ، فإذا فارق قريته وسكن مدينة من المدن رأيته لايجاريه أحد فى مسابقة أهلها إلى مراتع اللذات ومسارح الشهوات ، وفاق أمثاله فى جميع العيوب الأخرى !.

وبالجملة ، نقول : إن التمدن الأوروبى ليس خيرا محضا ، فإن الخير المحض ليس موجودا فى عالمنا هذا ، لأنه عالم النقص . وإنما هو الخير الذى أمكن للإنسان أن يصل إليه الآن ، فقد أتم به شيئا مما كان ينقصه ، وارتقى به درجة من الكمال .

ومهما كانت هذه النتيجة صغيرة ، فى جانب مايتطلب للنفس الإنسانية من الكمال ، فإنه ينبغى لنا أن نقنع بها ، وعلى المستقبل أن يصل بأهله إلى ماهو أعلى منها .

ومن الخطأ ما يتوهمه الكثير منا من أن الترقى يحصل فى بعض شئون الأمة ، ولايؤثر فى سائرها ، والصواب أن الترقى لايكون ترقيا صحيحا إلا إذا وجد منه روح تظهر فى جميع شئون الأمة ، جزئياتها وكلياتها ، حتى إذا شاء باحث أن يحلل جملته وجدها مركبة من جزئيات من الترقى تظهر فى المسكن والمطعم والملبس والمبانى والطرق والجمعيات والافراح والمآتم وأساليب التعليم والتربية والتياترات والملاهى ، كما تظهر فى الصنائع والتجارة والزراعة والعلوم والفنون ، وعلى الجملة يجد أثرا للترقى فى جميع مظاهر حياتها العقلية والادبية .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك لأن الحالة العقلية والحالة الأدبية متلازمتان تلازما تاما . بل هما فى الحقيقة حالة واحدة ، وإنما وضع لها اسمان بحسب اختلاف الجهة التى ينظر منها إليها ، فإن كل معلوم يرد على العقل يفيده معرفة جيدة ، ثم هو بهذه الافادة نفسها يدخل فى نظام سلوكنا ، ولو كان العلم قاصرا على المعرفة فقط وليس له أثر فى العمل لفقد معظم أهميته ان لم نقل كلها .

وأما اختلاف عادات الغربيين عن عاداتنا ، وخروج نسائهم مكشوفات الوجوه واجتماعهن مع الرجال ، وتمتعهن بالحرية ، واحترام الرجال لهن ، فليس مما يدل على انحطاط الآداب عندهم .

نعم ، يعد الكثير منا هذه العادات عيوبا ، ولكن إذا سئلت : لماذا يعامل الغربيون نساءهم على هذه الطريقة ؟ لماذا يحترم الرجل منهم امرأته ويجلسها عن يمينه ويحب أن تكون نبيهة متعلمة ؟ لماذا يسمح لها أن تخرج متى شاءت وتسافر وتخالط الرجال والنساء ؟ لماذا كل هذه الحرية وكل هذا الاحترام ؟ فجواب الواحد منا لايكون إلا أن هذه هى عادتهم السيئة . ولكن هذا الجواب لايفيد شيئا ، لأنه يستدعى سؤالا آخر ، وهو : لماذا كانت هذه العادة ؟ وهنا يتيسر له الجواب .

لو كان موضوع بحثنا عادة من عادات أمة متوحشة لسهل علينا أن نقول : إن هذه العادة طرأت عليها بحكم الحوادث ، وتلك الأمة تعمل تحت سلطانها بدون أن تفكر فيها ، وهى تجهل أصلها وارتباطها بأحوالها كما تجهل الأثر الذى ينشأ عنها فى شئونها .

ولكن مما لايسلمه العقل أن أهل أوروبا وأمريكا يسيرون على هذه العادة من غير شعور منهم بأسبابها ونتائجها ، ويصعب على العقل أن يظن أن علماءهم الذين يجهدون أنفسهم كل يوم فى اكتشاف أسرار الطبيعة ، وأن هؤلاء الذين بحثوا عن الميكروبات ووجدوها وبينوا أنواعها ووصفوها بأدق أوصافها وربوها واستولدوها ، غفلوا عن هذه العادة وأهملوها .

والحقيقة أنهم درسوها درسا تاما ، كغيرها من المسائل الأخرى ، وقارنوا بينها وبين عادتنا الشرقية ، ولا أعلم أن واحدا منهم قام ينادى قومه يوما ويحثهم على تغييرها . بل الكل متفقون على أن حجاب النساء هو سبب انحطاط الشرق ، وأن عدم الحجاب هو السر فى تقدم الغرب . وإنما الخلاف يوجد بينهم فى تحديد حقوق المرأة السياسية كما بيناه .

هذا الاجماع أمر جدير بأن يستوقف نظرنا . وجد بين الغربيين رجال يرون أن الملكية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخاصة هى سرقة ، وأن الأموال يجب أن تكون ملكا شائعا بين جميع أفراد الأمة . وظهر فيهم من يقول بإلغاء نظام الزواج حتى تكون العلاقات بين الرجل والمرأة حرة لاتخضع لنظام ، ولا يحددها قانون . وخرج منهم طائفة تنادى بهدم كل نظام وشرع . ولاتعترف لحكومة مهما كان شكلها بحق الوجود . ومع ذلك لم يخطر على بال واحد منهم أن يطلب حجاب النساء . بل نرى الأمر بالعكس ، فإن المتطرفين من أرباب المذاهب يطلبون التوسع فى حرية المرأة والزيادة فى حقوقها إلى أن تصير مساوية للرجل ، فهم على شططهم متفقون فى ذلك مع أرباب المشارب المعتدلة .

فما هو سر هذا الاتفاق وماسببه ؟ ألأن الأوروبيين لايحبون التغيير فى عاداتهم ؟ كلا . فإن التغيير عندهم هو قانون تقدمهم ، ومن ألقى نظرة عامة فى تاريخهم من قرن واحد يجد أنهم غيروا كل شىء عندهم ، غيروا حكومتهم ولغتهم وعلومهم وفنونهم وقوانينهم وملابسهم وعاداتهم ، وأن كل ماوصلت إليه هذه الأمور معرض الآن لانتقاد الباحثين منهم ومهدد بالتغيير والتبديل من وقت إلى آخر .

كذلك لايصح أن يكون من أسباب هذا الاتفاق مايقال من أن الأوروبيين لايقدرون شرف النفس حق قدره ولايغارون على نسائهم . هذا القول الذى سمعته من كثير من الناس لايمكن أن يصدر إلا من قليل الخبرة ، ناقص المعرفة ، لم يقف على شىء من أحوال سكان تلك البلاد ، فهو لايدرى منها أكثر مما يدريه من أحوالنا سائح غربى يدور فى « الأزبكية » وما جاورها ، ويكتب من عوائدنا مايراه من الطائفين حول تلك الاماكن المشهورة . إذن فما هو السبب ؟.

السبب هو أن مسألة حقوق المرأة وحريتها ليست فى الحقيقة مجرد عادة . نرى الغربى يرفع قبعته إذا أراد التحية ، والشرقى يحرك يده ويضعها على رأسه ، فهذه عادة من العادات يمكن أن يكون لها ارتباط بتاريخ الشرق والغرب ، ولكن أهميتها لاتتعدى الموضوع الصغير الذى وضعت لأجله ، ولايمكن أن يترتب عليها نتيجة فى الحياة الشخصية أو العامة . أما كون المرأة تتعلم أو لاتتعلم ، وتعيش مسجونة فى البيت أو متمتعة بحريتها ، وتخالط الرجال أو لاتخالطهم ، وماهى حقوقها فى الزواج والطلاق ، وماذا يكون شأنها فى العائلة وفى الأمة فهذه أولا مسألة اجتماعية ، فهى بذلك مسألة علمية ، ولا غرابة بعد ذلك فى حصول الاتفاق فيها .

لهذا يلزمنا بدل أن نهزأ بالغربيين ونحكم عليهم بمقتضى قاعدة تخيلناها ، وهى انهم ضلوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عن الحق فى مايختص بشأن النساء عندهم ، يلزمنا بدل ذلك أن نقف على أفكارهم فى هذه المسألة ، ونبحث فى آرائهم وفى أسباب النهضة العظيمة التى قام بها الرجال والنساء فى هذا القرن ، وندرس جميع نتائجها الحالية . وبعد ذلك يمكن أن نكون لأنفسنا رأيا صحيحا مؤسسا على النظريات العقلية الصحيحة ومؤيدا بالتجارب والوقائع .

* * *

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خاتمة

(حالة الأفكار الآن فى مصر بالنسبة للنساء)

ابتدأ المصريون فى هذه السنين الأخيرة يشعرون بسوء حالتهم الاجتماعية ، وبدت عليهم علامات التألم منها ، وأحسوا بضرورة العمل على تحسينها . وصلت إليهم أخبار الغربيين واختلطوا وعاشروا الكثير منهم ، وعرفوا مبلغ تقدمهم ، رأوا أنهم متمتعون بطيب العيش واتساع السلطة ونفوذ الكلمة وغير ذلك من المزايا التى وجدوا أنفسهم محرومين منها ، والتى لا قيمة للحياة بدونها ، انبعث فيهم الشوق إلى مجاراتهم والرغبة فى الحصول على تلك النعم . وقام بيننا المرشدون وتزاحموا على بث الأفكار التى اعتقدوا أنها تهدى الأمة إلى طريق النجاح ، هذا يدعو إلى العمل والنشاط ، وذاك إلى ائتلاف القلوب والاتحاد ونبذ أسباب الشقاق ، وآخر إلى حب الوطن والتفانى فى خدمته ، وغيره إلى التمسك بأحكام الدين ، وهلم جرا .

ولكن فات هؤلاء المرشدين أمر واحد ، وهو أن هذه الكلمات وماشاكلها لايمكن أن يكون لها فى حياة الأمة أثر يذكر إلا إذا وصلت إلى النساء وأدركت معانيها وتعلقت نفوسهن بحبها وتوجهت ميولهن إليها ، حتى يمكنهن بعد ذلك أن يضعن أولادهن بأحسن الصور التى تمثل كمال الإنسان فى أذهانهن .

ذلك لأن كل حال اجتماعية لايمكن تغييرها إلا إذا وجهت التربية نحو التغيير المطلوب ، ولأنه لايكفى فى الاصلاح ، مهما كان موضوعه ، مجرد الحاجة إليه ، ولا أمر تصدره الحكومة بحمل الناس عليه ، ولا خطبة تلقى على مسامعهم لترغيبهم فيه ، ولا كتب تؤلف فى بيان منافعه ولا مقالات تنشر لشرح مزاياه . فإن هذه الأمور كلها لا أثر لها إلا فى ارشاد الأمة وتنبيهها إلى سوء حالها ، ولكنها ليست من الوسائل التى تغير الأمم وتحولها من حال إلى حال ، لأن كل تغيير فى الأمم إنما يكون نتيجة لمجموع فضائل وصفات وأخلاق وعادات لاتتولد فى النفوس ولا تتمكن منها إلا بالتربية ، أى بواسطة المرأة .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإذا أراد المصريون أن يصلحوا أحوالهم فعليهم أن يبتدئوا فى الاصلاح من أوله . يجب عليهم أن يعتقدوا بأن لا رجاء فى أن يكونوا أمة حية ذات شأن بين الأمم الراقية ومقام فى عالم التمدن الإنسانى قبل أن تكون بيوتهم وعائلتهم وسطا صالحا لاعداد رجال متصفين بتلك الصفات التى يتوقف عليها النجاح . ولا رجاء فى أن البيوت والعائلات تصير ذلك الوسط الصالح إلا إذا تربت النساء وشاركن الرجال فى أفكارهم وآمالهم وآلامهم ان لم يشاركنهم فى جميع أعمالهم .

هذه الحقيقة مع بساطتها وبداهتها قد اعتبرها الناس ، يوم جاهرنا بها فى العام الماضى (٣٦٣) ، ضربا من الهذيان ، وحكم الفقهاء بأنها خرق فى الإسلام ، وعدها الكثير من متخرجى المدارس مبالغة فى تقليد الغربيين ، بل انتهى بعضهم إلى القول بأنها جناية على الوطن والدين . وأوهموا فيما كتبوا أن تحرير المرأة الشرقية أمنية من أمانى الأمم المسيحية تريد بها هدم الدين الإسلامى ، ومن يعضدها من المسلمين فليس منهم ، إلى غير ذلك من الأوهام التى يصغى إليها البسطاء ويتلذذ باعتقادها الجهلاء لعدم إدراكهم منافعهم الحقيقة .

ونحن لانريد أن نرد عليهم إلا بكلمة واحدة وهى : أن الأوروبيين إذا كانوا يقصدون الاضرار بنا فما عليهم إلا أن يتركونا لأنفسنا ، فانهم لايجدون وسيلة أوفى بغرضهم فينا من حالتنا الحاضرة !.

هذا هو الحق الذى لاريب فيه . ومهما اجتهد قوم فى اخفائه وغفل آخرون عنه فلابد أن ينجلى للكل ، عاجلا أو آجلا ، شأن الحقيقة فى جميع الأزمان .

وكل ناظر فى أحوال هيئتنا الاجتماعية الحاضرة يجد فيها مايدل على أن النساء عندنا قطعن دور الاستعباد ، ولم يبق بينهن وبين الحرية إلا حجاب رقيق ، إذ يرى :

أولا ـ شعورا جديدا عند المصريين بالحاجة إلى تربية بناتهم بعد أن كانوا لايعلمونهن شيئا .

ثانيا ـ تخفيف الحجاب وذهابه شيئا فشيئا إلى التلاشى .

ثالثا ـ تأفف الشبان من التزوج على الطريقة الحالية ، وتمنيهم تغييرها بما يمكنهم من معرفة المخطوبة .

---

(٣٦٣) أى عند صدور كتاب [تحرير المرأة] .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رابعا ـ اهتمام الحكومة وبعض أبناء البلاد ، وفى مقدمتهم صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية بإصلاح المحاكم الشرعية . وكل من اطلع على التقرير الجليل الذى وضعه فضيلته بشأن تلك المحاكم يجد أمورا كثيرة تأتى بإصلاح كبير فى العائلات المصرية ، وأخص بالذكر منها ما أتى به عند الكلام على تعدد الزوجات حيث قال :

« هنا وانى أرفع صوتى بالشكوى من كثرة مايجمع الفقراء من الزوجات فى عصمة واحدة ، فإن الكثير منهم عنده أربع من الزوجات أو ثلاث أو اثنتان وهو لا يستطيع الانفاق عليهن ، ولا يزال معهن فى نزاع على النفقات وسائر حقوق الزوجية ، ثم انه لا يطلقهن ولا واحدة منهن ، ولا يزال الفساد يتغلغل فيهن وفى أولادهن ، ولا يمكن له ولا لهن أن يقيموا حدود الله ، وضرر ذلك بالدين والأمة غير خاف على أحد »[٣٦٤].

وقد حدث فى هذا العام أن كثيرا من النساء اللواتى حكم على أزواجهن بالاشغال الشاقة مؤبدا أو بالسجن المؤبد أو بالحبس مدة طويلة تشكون إلى نظارة الحقانية من حالتهن التعيسة ، حيث لاسبيل لهن من الانفصال من أزواجهن ، ولايوجد لهن عائل يقوم بنفقاتهن ومعاش أولادهن ، فاضطرت نظارة الحقانية إلى استفتاء حضرة مفتى الديار المصرية عن الوجوه الشرعية التى يمكن اتخاذها لإزالة أسباب الشكوى ، فبحث حضرته فى هذه المسألة وفى مسائل أخرى تشابهها ، واستنتج من فقه المالكية إحدى عشرة مادة ، وقدمها إلى نظارة الحقانية ، وإليك بيانها ننشرها افادة للقراء[٣٦٥].

(**المادة الأولى**) : إذا امتنع الزوج عن الإنفاق على زوجته فإن كان له مال ظاهر نفذ الحكم عليه بالنفقة فى ماله ، فإن لم يكن له مال ظاهر وأصر على عدم الانفاق طلق عليه القاضى فى الحال ، وان ادعى العجز فإن لم يثبته طلق عليه حالا ، وان أثبت الإعسار أمهله مدة لاتزيد على شهر فإن لم ينفق طلق عليه بعد ذلك .

(**المادة الثانية**) : ان كان الزوج مريضا أو مسجونا وامتنع عن الانفاق على زوجته أمهله القاضى مدة يرجى فيها الشفاء أو الخلاص من السجن ، فإن طالت مدة المرض أو السجن بحيث يخشى الضرر أو الفتنة طلق عليه القاضى .

---

(٣٦٤) انظر تقرير اصلاح المحاكم للامام محمد عبده فى الجزء الثانى من أعماله الكاملة التى حققناها ص ٢١ وما بعدها . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ . المؤسسة العربية للدراسات والنشر

(٣٦٥) انظر النص الكامل لهذه الفتوى فى الجزء السادس من الاعمال الكاملة للامام محمد عبده ، التى حققناها ، ص ٣٧٩ طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(**المادة الثالثة**) : إذا كان الزوج غائبا غيبة قريبة ولم يترك نفقة لزوجته ضرب القاضى له أجلا ، فإن لم يرسل ماتنفق منه زوجته على نفسها أو لم يحضر للانفاق عليها طلق عليه القاضى بعد مضى الأجل ، فإن كان بعيد الغيبة أو كان مجهول المحل وثبت أنه لامال له تنفق منه الزوجة طلق عليه القاضى .

(**المادة الرابعة**) : إذا كان للزوج الغائب مال أو دين فى ذمة أحد أو وديعة فى يد آخر كان للزوجة حق طلب فرض النفقة من ذلك المال أو الدين ، ولها أن تقيم البينة على من ينكر الدين أو الوديعة ، ويقضى بطلبها بلا كفيل ، وذلك بعد أن تحلف أنها مستحقة للنفقة على الغائب وأنه لم يترك لها مالا ولم يقم عنه وكيلا فى الانفاق عليها .

(**المادة الخامسة**) : تطليق القاضى لعدم الانفاق يقع رجعيا ، وللزوج أن يراجع زوجته إذا أثبت يساره واستعد للانفاق فى أثناء العدة ، فإن لم يثبت يساره أو لم يستعد للانفاق لم تصح الرجعة .

(**المادة السادسة**) : من فقد فى بلاد المسلمين وانقطع خبره عن زوجته كان لها أن ترفع الأمر إلى نظارة الحقانية ، مع بيان الجهة التى تعرف أو تظن أنه سار إليها أو يمكن أن يوجد فيها ، وعلى ناظر الحقانية عند ذلك أن يبحث عنه فى مظنات وجوده بطرق النشر للحكام ورجال البوليس ، وبعد العجز عن خبره يضرب لها أجل أربع سنين ، فإذا انتهت تعتد الزوجة عدة وفاة أربعة أشهر وعشرا بدون حاجة إلى قضاء ويحل لها بعد ذلك أن تتزوج بغيره .

(**المادة السابعة**) : إذا جاء المفقود أو تبين أنه حى ، وكان ذلك قبل تمتع الزوج الثانى بها غير عالم بحياته ، كانت الزوجة للمفقود ، ولو بعد العقد مطلقا أو بعد التمتع فى حال ما لو كان الزوج الثانى عالما بحياة المفقود ، فإن ظهر أن المفقود مات فى العدة أو بعدها قبل العقد على الزوج الثانى أو بعده ورثته مالم يكن تمتع بها الثانى غير عالم بحياة الأول ، فإن مات بعد تمتعه وهو عالم بحياة الزوج الأول لم ترث .

(**المادة الثامنة**) : من فقد فى معترك بين المسلمين بعضهم مع بعض ، وثبت أنه حضر القتال ، جاز لزوجته أن ترفع الأمر إلى ناظر الحقانية ، وبعد البحث عنه وعدم العثور عليه تعتد الزوجة ، ولها أن تتزوج بعد العدة ، ويورث ماله بمجرد العجز عن خبره ، فإن لم يثبت إلا أنه سار مع الجيش فقط كان حكمه مافى المادتين السابقتين .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(**المادة التاسعة**) : لزوجة المفقود فى حرب بين المسلمين وغيرهم أن ترفع الأمر إلى ناظر الحقانية ، وبعد البحث عنه يضرب لها أجل سنة ، فإذا انقضت اعتدّت وحل لها الزواج بعد العدة . ويورث ماله بعد انقضاء السنة .

وكل ضرب الآجال لاعتداد زوجة المفقود إذا كان فى ماله ماتنفق منه الزوجة أو لم تخش على نفسها الفتنة وإلا رفعت الأمر إلى القاضى ليطلق عليه متى ثبت له صحة دعواها .

(**المادة العاشرة**) : إذا اشتد النزاع بين الزوجين ، ولم يمكن انقطاعه بينهما بطريقة من الطرق المنصوص عليها من كتاب الله تعالى ، رفع الأمر إلى قاضى المركز ، وعليه عند ذلك أن يعين حكمين عدلين أحدهما من أقارب الزوج والثانى من أقارب الزوجة ، والأفضل أن يكونا جارين ، فإن تعذر العدول من الأقارب فإنه يعينهما من الأجانب ، وأن يبعث بهما إلى الزوجين ، فإن اصلحاهما فبها وإلا حكما بالطلاق ورفعا الأمر إليه ، وعليه أن يقضى بما حكما به ، ويقع التطليق فى هذه الحالة طلقة واحدة بائنة ، ولا يجوز للحكمين الزيادة عليها .

(**المادة الإحدى عشرة**) : للزوجة أن تطلب من القاضى التطليق على الزوج إذا كان يصلها منه ضرر ، والضرر هو مالايجوز شرعا ، كالهجر بغير سبب شرعى ، والضرب والسب بدون سبب شرعى ، وعلى الزوجة أن تثبت كل ذلك بالطرق الشرعية » .

وقد وافق على هذا المشروع حضرة شيخ الجامع الأزهر ـ حيث أرسل إلى حضرة المفتى الجواب الآتى :

« حضرة الأستاذ صاحب الفضيلة مفتى افندى الديار المصرية أيده الله .

باطلاعنا على خطاب فضيلتكم المؤرخ ٤ الجارى نمرة ١٩ وعلى المشروع المرفق به المشتمل على إحدى عشرة مادة مستخلصة من مذهب الإمام مالك رضى الله عنه ، المطلوب ابداء رأينا فيه ، قد رأينا ما رأيتموه ، ووقعنا عليه بالموافقة ، وشكرنا همتكم العلية على اعتناء فضيلتكم بهذا الخطب الجليل . وطيه المشروع المذكور أفندم .

الفقير سليم البشرى ، المالكى
خادم العلم والفقراء بالأزهر »

٦ ربيع آخر سنة ١٣١٨ [٣٦٦] .

---

(٣٦٦) الموافقة لسنة ١٩٠٠ م .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هاتان المسألتان مسألة تعدد الزوجات . ومسألة تخويل المرأة حق الطلاق . هما من أهم المسائل التي استلفتنا إليها الأنظار في كتاب [تحرير المرأة] ويسرنا أن عالما عظيما وفقيها حكيما مثل حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبده رأى أنهما جديرتان بهمته . فأيد بصوته المسموع ما اقترحناه فيهما .

جميع هذه العلامات وغيرها مما يلاحظ في البيوت كل يوم تنبئنا بأن حالة المرأة المصرية آخذة في التحسن والترقي .

غير أن هذه الحركة لم تصدر عن نظر وروية . بل حدثت فينا بالتأثر عن مخالطة الغربيين وبمقتضى حكم الناموس المعروف عند علماء التاريخ الطبيعي القاضي بأن كل حيوان يتطبع بطبيعة الوسط الذي يعيش فيه . والدليل على أن لا دخل لإرادتنا في هذه الحركة أننا عندما قلنا بوجوب المحافظة عليها وإعدادها حتى نبلغ منها الغاية لاقينا معارضة شديدة حتى ممن ظهرت مبادئ هذا التحول في نفوسهم وبدت بوادره في بيوتهم .

ولا عجب في ذلك . فإن شأننا أن نتبع أهواءنا في جميع أعمالنا .

وقد أطلنا الوقت الذي يجب فيه أن نعرف ماذا نريد؟ .

إن كان مقصدنا من الحياة أن يعيش كل منا بضع سنين يقضيها في أي حال كانت واستوى لدينا العز والذل . والغنى والفقر . والحرية والرق . والعلم والجهل . والفضيلة والرذيلة . فأرى أن مامنح إلى الآن للمرأة المصرية من الحرية والتربية لاداعي له . ولا أجد مانعا من أن يتمتع الرجل بعدة نساء . ويتزوج كل يوم امرأة ثم يطلقها في اليوم التالي ويسجن زوجاته وبناته واخواته وأمه وجدته إذا شاء !.

يوجد في أفريقيا وآسيا أمم عديدة تعيش النساء فيها مدفونات في البيوت بحيث لايرين إنسانا ولايراهن أحد . ويوجد بين هذه الأمم من وصلت عندها حياة المرأة من الحقارة إلى حد أنه متى توفي زوجها وجب عليها أن تعدم نفسها لكي لاتتمتع بالحياة بعده ! فما علينا إلا أن نوجه أنظارنا إلى هؤلاء الأمم ونسألهم عن سر تقدم نسائهم في الجهل والاحتجاب . لعلنا نجد عندهم مايقوي حجتنا في تشديد الحجاب والحجر على المرأة !.

أما إذا كان المقصد هو مانقرؤه ونسمعه كل يوم من أن المصريين يريدون أن يكونوا أمة حية راقية متمدنة فلنا أن نقول لهم :

توجد وسيلة تخرجكم من الحالة السيئة التي تشتكون منها . وتصعد بكم إلى أعلى مراتب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التمدن . كما تشتهون وفوق ماتشتهون . ألا وهى تحرير نسائكم من قيود الجهل والحجاب . هذه الوسيلة نحن لم نبتكرها . وليس لنا فضل فى اختراعها . فقد استعملتها أمم من قبلنا وجربتها وانتفعت منها . انظروا إلى الأمم الغربية تجدوا بين نسائها اختلافات عظيمة . تجدوا أن تربية المرأة الأمريكية وأخلاقها وعاداتها وآدابها غير تربية وأخلاق وآداب المرأة الفرنساوية . وأن هذه تختلف من كل هذه الوجوه عن المرأة الروسية . وأن المرأة التليانية لاتشبه فى شىء من ذلك المرأة السويدية ولا الألمانية . ولكن جميع هؤلاء النساء على اختلاف الأقليم والجنس واللغة والدين بينهن اتحدن واجتمعن فى أمر واحد وهو أنهن يملكن حريتهن ويتمتعن باستقلالهن .

هذه الحرية هى التى أخرجت المرأة الغربية من انحطاطها القديم . فلما أضيف عليها التعليم وجهت ارادتها إلى أن تشترك مع الرجال فى تقدم الجمعية التى تنسب إليها . وتم هذا الاشتراك بإتيانها أعمالا مفيدة تختلف بلا ريب عن أعمال الرجال . ولكن لاتنقص عنها فى الأهمية فالتاجر الذى يقضى نهاره فى حانوت لبيع بضاعته . والكاتب الذى يمضى بضع ساعات فى ديوان من دواوين الحكومة يشتغل فيها بتحرير إفادة إلى مصلحة أخرى . والمهندس الذى يبنى قنطرة لتسهيل المواصلات بين البلاد . والطبيب الذى يقطع عضوا ليحيى باقى أعضاء الجسم . والقاضى الذى يفصل فى المنازعات التى تقوم بين الناس . جميع هؤلاء وغيرهم لايوجد منهم واحد يحق له أن يدعى أن عمله يفيد الهيئة الاجتماعية أكثر من عمل امرأة تهدى إلى الجمعية رجلا وتربيه على أن يكون نافعا لنفسه ولأهله ولأمته .

نحن لانقول لكم كما يقول غيرنا : اتحدوا وكونوا عونا بعضكم لبعض . أو طهروا أنفسكم من العيوب التى تعهدونها فى أخلاقكم . أو اخدموا أهلكم ووطنكم . أو مايماثل ذلك من الكلام الذى يذهب فى الهواء . نحن نعلم أن تغيير النفوس لاتنفع فيه نصيحة مرشد ولا أمر سلطان ولا سحر ساحر ولا كرامة ولى . وإنما يتم . كما ذكرنا . بإعداد نفوس الناشئين إلى الحال المطلوب أحداثها .

ذلك هو السير الطبيعى البعيد الأمد المحفوف بالمصاعب . ولكن اسهل المصاعب هى التى تنتهى بالفوز والنجاح . وأقرب الطرق هى التى توصل إلى المقصد .

[انتهى الكتاب والحمد لله]

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإمام محمد عبده ٣١١
خطاب لقاسم أمين فى حفل تأبين الأستاذ الإمام .. عن أخلاقه وفضائله وإمامته ٣١٢

كتاب : [تحرير المرأة] ٣١٩
مقدمة ٣٢٠
تمهيد : (حالة المرأة فى الهيئة الاجتماعية تابعة لحالة الآداب فى الأمة) ٣٢٢
تربية المرأة ٣٢٩
١ ـ أما بالنسبة للوظيفة الاجتماعية ٣٣٠
٢ ـ وأما بالنسبة للوظيفة العائلية ٣٣٤
حجاب النساء ٣٥٠
١ ـ الجهة الدينية ٣٥٢
٢ ـ الجهة الاجتماعية ٣٥٩
المرأة والأمة ٣٧٤
العائلة ٣٨٧
١ ـ الزواج ٣٨٧
٢ ـ تعدد الزوجات ٣٩٣
٣ـ الطلاق ٣٩٧
خاتمة ٤١١
١ ـ أما العلم ٤١١
٢ ـ وأما العزيمة ٤١٥

كتاب : [المرأة الجديدة]
الإهداء ٤١٩
مقدمة ٤٢٠
المرأة فى حكم التاريخ ٤٢٤
حرية المرأة ٤٣٦
الواجب على المرأة لنفسها ٤٥٥
الواجب على المرأة لعائلتها ٤٦٩
التربية والحجاب ٤٨٨
خاتمة : (حالة الأفكار الآن فى مصر بالنسبة للنساء) ٥١١
المصادر : التى استخدمت فى الدراسة والتحقيق ٥١٩
موسوعات ودوريات ٥٢١

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كشاف : ٥٢٣

١ ـ فهرس الآيات القرآنية ٥٢٥
٢ ـ فهرس الأحاديث النبوية ٥٣٠
٣ ـ فهرس الأعلام ٥٣٢
٤ ـ فهرس الفرق والأحزاب والجمعيات ٥٤٥
٥ ـ فهرس الأماكن والبلدان ٥٤٧
٦ ـ فهرس الموضوعات ٥٥٤

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com